

على

# أبواب خير

د. نجيب الكيلاني

## حقوق الطبع محفوظة

1421 هـ - 2001 م

\* الكتاب : على أبواب خبير

\* الكاتب : د. نجيب الكيلاني

\* الطبعة : الأولى 2001.

\* الناشر والتوزيع : دار البشير للثقافة والعلوم - طنطا .

تليفاكس : 3305538 - 040 / 3321744

☎ : 2120277 - 040 / 2120907

أصالة للتجارة والتسويق - الزقازيق

تليفاكس : 055 / 353988

\* التجهيز الفني : الندى للتجهيزات الفنية - المحلة الكبرى

تليفاكس : 040 / 2120277

\* الإبداع القانوني : 2000 / 11744

\* الترخيم الدولي : I.S.B.N.977 - 278 - 176-x

Web Site : [www.albashir.com.eg](http://www.albashir.com.eg)

E-mail: [albashira@compu-castle.com.eg](mailto:albashira@compu-castle.com.eg)

### الفصل الأول

صفية ابنة حبي بن أخطب تعد من أشهر نساء اليهود على الإطلاق، فأبوها حبي بن أخطب رجل مرموق المكانة، نابه الشأن صاحب رأى وكلمة مطاعة بين قومه من اليهود، وعلى صلات وثيقة مع رجالات القبائل العربية فى طول الجزيرة وعرضها وزوجها كنانة بن الربيع سيد قومه، وملك - خبير - كثير المال، قوى الجانب، تحميه السيوف والدنانير والتجارة الواسعة والديانة العتيقة، وصفية فى نفس الوقت على جانب كبير من الجمال والفطنة والأريحية، فهى تيش عند اللقاء، وتحجود للفقراء، وتواسى المحزونين، بل إنها تحظى أكثر من زوجها بحب شعب اليهود بناته ورجاله، ولم تكن فى يوم من الأيام بمعزل عن كبريات الأمور التى تجرى سواء فى مجال السياسة أو الدين أو الحرب أو المال.

وامرأة هذا شأنها لم تغلق فكرها، أو تغمض عينيها عما يجرى بشأن النبی العربی الجديد كانت تتقصى أنباءه وتلح فى طلبها، وتتلقى ما يصل إليها من آيات القرآن تلقى الشغوفة ذات الفضول الزائد، وترمق بعين يقظة صدى الدعوة الإسلامية فى مجتمعات اليهود الصاخبة، وتابعت تطورات الموقف مرحلة مرحلة، فى البداية كان اليهود يناقشون أمر ظهور نبي جديد، وموقفهم من ذلك النبی، الذى بشرت به كتبهم برغم ما فيها من أكاذيب وتعاليم موضوعة لا تمت إلى التوراة بصلة، كانوا يأملون أن ينحاز النبی

الجديد إلى صفهم، وينضوى تحت لوائهم، فهم أسبق في لقاء السماء، وأقدم عهداً بكتبتها، وأطول تاريخاً في ممارستها كما يزعمون.

وقالت صفية لزوجها كنانة بن الربيع:

- النبي الجديد يؤمن بموسى.

قال ساخرأ:

ويؤمن بعيسى والأنبياء من قبله.

- هذه بداية طيبة يا كنانة.

- بل أسوأ بداية..

- كيف.. لن يكون بيننا وبينه لقاء..

- ألا يؤمن بالله وكتبه ورسله.

- نحن لا نؤمن بغير أنبياء بنى إسرائيل وكتبهم.

ثم أخذ يشرح لها الأمر في صراحة عجيبة، ما دمنا لا نستطيع أن نطوى هذا النبي العربى تحت جناحنا، فلسوف نعاديّه بالضرورة إنه يتهم كتبنا بالتحريف والتغيير والتبديل، ويتلوا الآيات عن بنى إسرائيل، وقتلهم الأنبياء بغير حق، ويسرد قصصنا بطريقة مخالفة، والأخطر من هذا كله، أنه يدعونا إلى الإيمان بدعوته، معنى ذلك أن يتحول السادة إلى جنود تحت إمرته، أو إلى عبيد يأثمرون بمشيئته، ومعنى هذا أن نلقى بكتبنا المحرفة - كما يزعم - ولا



نؤمن إلا بقرآنه، وأن نعرف بنوة عيسى وإنجيله.

إن دينه كما يقول - هو خاتم الرسالات، والمهيمن على الديانات القديمة، والشامل لأمر الدين والدنيا، معنى ذلك أن نحرم ما حرم، وأن نحل ما أحله، معنى ذلك زوال ملكتنا وسلطاننا، وانهيار مجدنا، فلا ربا ولا امتياز لعنصرنا، ومعنى ذلك أن نؤدى شعائرتنا وعباداتنا كما يؤديها، وأن نرفع شعاره الخطر «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، ويصبح كنانة بن الربيع، وحيى بن أخطب، وكعب بن أسد بن قريظة، وكعب ابن الأشرف شاعرنا العظيم، وعمرو بن جحش، أن يصبح هؤلاء جميعاً فى منزلة العبد الحبشى بلال أو المتشرد الغربى سلمان الفارسى، أو دونهم، والله إن ذلك لن يكون مادمت على قيد الحياة.

أطرت صفية هنيهة، لم يعجبها طريقة زوجها فى عرض الأمر الخطير.

وتمت صفية بنت حى بن أخطب :

- إننى خائفة يا كنانة .

- لماذا؟

- أخاف أن يكون محمد على حق .

ضحك ضحكة قصيرة وقال :

- قولى صراحة أنك تخافين أن يكون اليهود على باطل .

- نفس المعنى .

- لعل هذا ما كان يقوله أسلافنا عندما ظهر عيسى بن مريم ،  
لكن هذا لم يمنعهم من السير فى طريقهم ، والتمسك بعقيدتهم حتى  
الآن .

قالت صفية فى قلق :

- هذا لا يعنى أن أسلافنا كانوا على حق بالضرورة .

- ما تعين إذن ؟

- إن وجود الوثنيين حتى عصرنا هذا ، وعدم إيمانهم بأى نبي لا  
يعنى أنهم على حق .

- إنك يا صفية تتمتعين بمنطق خلاب ، وحوار مذهل .

- إننى أبحث عن الحقيقة .

صرخ فيها محتداً :

- الحقيقة هنا . . فى كتبنا . . الحقيقة التى تملكها باقية منذ آلاف  
السنين ، يجب أن تكفى عن هذا الهراء ، هذه الفلسفات العقيمة لا  
مجال لها فى موقف الجدل الحاسم يا صفية ، إنك تتكلمين بطريقة  
تخالف المفاهيم التى يتحدث بها أبوك ، من أنت حتى تبدلين رأى فى  
أمر من أمور الدين ؟ النساء للفراش وقَدُور الطعام ونظافة المنازل .  
أطرقت صفية صامتة ، وانطوت على عالمها الخاص لشد ما  
تكره تصرفات زوجها ، وتنقم على أفكاره !

هذا المتعالي المتعطر، ينظر إليها دائماً من عل ويرمقها في ازدياء، يعاملها كجارية ويرتمى فوقها كالليضة ولا يكثر لرأيها حتى كأن النساء لا يعرفن كيف يفكرن ولا يستطعن أن يفعلن صواباً، أو ينطقن حقاً، شيء من النفور الزائد يخالط مشاعرها نحوه، لكنها لا تستطيع أن تكشف عن ذلك، أو تواجه به، إنه قدرها لا مفر منه ماذا يقول الناس لو تركت بيته وآوت إلى بيت أبيها؟ وأشرق وجهها فجأة بفرحة غامرة وتضرجت وجنتها بحمرة محبة وشردت ببصرها إلى بعيد.

— فيما تفكرين يا امرأة؟

— رؤيا غريبة رأيته في منامي الليلة الفائتة.

— ما هي؟

قالت وهي شاردة في آفاق علوية محبة، ولعلها تناست وجود زوجها ملك خير العظيم:

— رأيت فيما يرى النائم أن الظلام قد غطى الأرض بسواده الكثيف وليس فيه بصيص من نور، أو بارقة من أمل وفجأة سطع في السماء قمر منير، رأيته يأتي من يثرب، يعبر السماء في مشهد رائع باهر، العجيب أنني رأيت القمر يميل نحوي، يقترب مني، ثم دخل في حجري.

أريد وجه زوجها، وهو يستمع لتلك الكلمات، وتغيرت سحنته، ثم كور قبضته ورفعها إلى أعلى، ثم أهوى بها على وجه

صفية قرب عينيها، فانتفضت في دعر، وهبت واقفة وقد شحب وجهها، ووضعت يدها على مكان اللكمة، وقد هطلت الدموع من عينيها، وامتلاً قلبها بحقد هائل نحو زوجها، وقبل أن تنطق بكلمة سمعته يقول في غيظ:

- كأنك تخمين أن تكوني تحت هذا الملك الذي يأتي من المدينة.  
تمالكت نفسها، وتمت:

أى ملك تقصد، وليس بالمدينة ملك؟ وهل لى حيلة أن أرى رؤيا- أى رؤيا- ثم أقصها عليك؟ أترانى أكرمت؟  
قال وهو يصرف وجهه عنها:

- دعى هذا الحديث السمج.

- أتغار حتى من أضغاث الأحلام؟

- أغار؟ أنا؟ كيف؟، ليس فى هذا العالم إنسان يرجحنى،  
إننى سيد الجميع دون منازع!

ومن أنت حتى أغار عليك؟

حدجته بنظرات ناقمة وقالت:

- تأبى إلا أن تملك عواطفى وهواجسى، وهذيانى أثناء النوم، إنه أمر فوق الطاقة.

صاح فى غضب:

ماذا؟ أتمردين يا صفية بنت حى؟

- لا . . معذرة . . إن الإنسان لا حيلة له فيما يرى من أحلام .
- إذن فلا تُسمعينى هذه السخافات .
- لك ذلك .

استبد به الضيق ، وازداد الحنق فعاد يقول :

- إننى أعرف كل شيء ، أعرف ما يدور بخاطرك .
- أنت ؟

- أجل ، أنا ، إن فراستى فوق ما تتصورين .

عاد أبوها فى اليوم التالى ، كان على موعد مع كنانة وغيره من زعماء خير وبنى النضير وبنى قريظة وبنى التينتاح للتدارس فى أمر محمد ، وأملت صفية بما يجرى من تدابير ومؤامرات ، وألمها أن يقع أبوها فى هذه الأخطاء التى ليس لها ما يبررها ولم تقتنع بما يتداوله قومها اليهود من آراء وأحكام ، وعندما انفردت بأبيها همست قائلة :

- أبت ، لست أدرى لماذا تشورون هذه الثورة ، وتشغلون أنفسكم بتلك التدابير الخطرة ، لم لا تدعون محمداً وشأنه ، وتنصرفون إلى النافع من الأمور .

ضحك أبوها فى حنان ، وربت على كتفها فى ود وقال :

- وهل هناك أهم من الدين حتى نشغل أنفسنا به ؟

- لم أركم تهتمون بالدين فى يوم من الأيام كما تهتمون به الآن .  
 - لأنه ظهر فى هذه الأيام عامل جديد، كنا مشغولين بتجاراتنا  
 وسلطاننا، كنا هائنين، بعد أن توطدت مراكزنا، واتسع مجدنا  
 ونفوذنا، لكن . .

قالت صفية :

لكن ماذا يا أبت ؟

- محمد إنه يعرى سوءاتنا ويسفه من أحلامنا، ويتهم كتبنا  
 وأخبارنا، والمضحك أنه يدعونا إلى دينه، أسمعين؟ النبی العربی  
 الأمی، هذا الذى مازالت قبيلته تعبد الأوثان، يدعونا .  
 قالت صفية : إلى دينه، أليس ذلك أمراً مضحكاً . .  
 الله يصطفى رسله كيف شاء . .

شحب وجهه :

- الله؟ أجل، أجل، لكننا معشر اليهود لسنا فى حاجة إلى  
 رسل أو كتب عندنا رسلنا وكتبنا، والآن دعى هذا الأمر، وحديثى  
 عن أحوالك وعن كنانة معك، لا تثقلى رأسك بهذه الأمور  
 الشاقة .

أطرقت فى أسى وقالت :

- لكنى خائفة يا أبى !

- مم؟

إن كان محمد صادقاً فلن يضرنا صدقه، وإن كان كاذباً فعليه كذبه.

- بل سيضرنا إن كان صادقاً أو كاذباً.

- نفس كلمات كنانة زوجي.

- بالطبع، نحن على وفاق تام في الرأي، إن زوجك ذو رأي حصيف.

وصمتت صغية، إنهم يسدون الطريق في وجهها، ويرفضون حتى مجرد الاستماع لرأيها حتى النهاية، إنها امرأة لا أكثر لا تعرف سوى شئون الطهي والفراش وإدارة البيت.

وسمعت أبها يقول:

- لكن ما هذه الكلمة التي في وجهك؟

عادت الإشرافة إلى وجهها، وتضرجت وجنتاها بحمرة الخنجل وتمت بصوت خفيض لا يكاد يسمع.

- القمر القادم من يثرب.

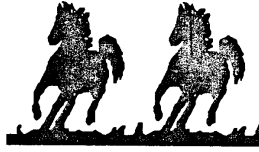
- ماذا تقولين؟

- لا شيء يا أبتى، لقد انكفأت على وجهي حينما تعثرت قدمي، إنها تؤلمني.

قال أبوها في حنان:

إنها تزيدك فتنة وإشراقاً.

ثم مرت أيام عصبية على اليهود، لقد غدر يهود بنو قينقاع باليهود والمواثيق، كما غدر يهود بنو النضير بنفس الطريقة، فكان جزاؤهم الطرد من أحيائهم، وهكذا رحل بعضهم إلى بنى - قريظة - والبعض ذهب إلى خيبر وهى أكبر تجمع يهودى فى الجزيرة العربية، والبعض الآخر - وهم قلة - غادر البلاد نهائياً، وهكذا لم يبق يثرب سوى يهود بنى قريظة الذين أقسموا على الوفاء بعهودهم مع الرسول وأن يكونوا حرباً على أعدائه، وحماية لظهره، لكنهم فى الأوقات الحاسمة انحازوا لصف الأحزاب فى غزوة الخندق، وطعنوا المسلمين فى الوقت العصيب، لولا حدثت تطورات خطيرة، وهربت الأحزاب وتفرقت قريش وغطفان وأسد وغيرهم من القبائل عائدين إلى ديارهم، وبقي يهود بنى قريظة فى طرف من أطراف المدينة، وقد افتضح غدرهم، بقوا لمصيرهم المحتوم.





### الفصل الثانی

ساد الذعر معسكر يهود بنى قريظة، وانتابهم ارتباك شديد، وأخذوا يتخبطون في آرائهم مينة ويسرة واختلط الصباح بالانتحاب - أصوات رجال ونساء والأطفال - لا يكاد السامع يتبين تفاصيل ما يلقي من أحاديث ونقاش - الشيوخ يقولون في صوت راجف:

لقد حذرناكم مغبة سوء التصرف، والشباب يقولون: لقد أخطأ القادة التصرف، وقذفوا بنا في أعماق تهلكة لا قرار لها، والنسوة يهتفن في لوعة:

لقد أحلتم أمننا إلى خوف، وهدوؤنا إلى اضطراب، وسعادتنا إلى شقاء، فابحثوا لنا ولكم عن حل، ويبكي الأطفال في حسرة ويتساءلون في براءة: ماذا جرى؟ إننا سندبح ذبح الشياه في وقت قريب.

وصاح كعب بن أسد:

أين المجرم حيى بن أخطب؟

لقد اختفى حيى إنهم يبحثون عنه وسط الرجال فلا يجدونه.

لو وجدت حيى بن أخطب لمزقته إرباً إرباً، دلونى عليه يا قوم.

ورد رجل آخر: ولم العجلة؟ انتظروا حتى نرى كيف يحل الإشكال المدمر الذى ورطنا فيه.

لم يكن أحد يدري كيف اختفى حبي بن أخطب ولا إلى أين ذهب، ومن ثم أخذ رجال بني قريظة يتحدثون عنه في غيظ، ويرمونهم بالحمافة والأثانية، إنهم يحسبون أنه قد هرب، كما هرب «ابن أبي الحقيق» منذ ساعات، أيمن أن يكون «حبي» هو الآخر قد هرب؟.

أهكذا يكون القادة والمسؤولون من كبار القوم وخيرة الرجال؟.

إن قريظة ترى الهارب في هذا الوقت خائناً يرتكب في حق الدين والوطن أكبر خيانة، ولا يمكن أن تغتفر جريمة الهروب في هذه اللحظات.

وخاصة من حبي بن أخطب الذي عاهدهم على البقاء إلى جوارهم حتى النهاية، فهو الذي رسم طريق الحرب، ودعا إليها، وسار بشأنها إلى القبائل من غطفان وأسد وغيرهما، وهو الذي أقنع قريش بأن تسوق جنودها إلى المعركة الفاصلة - ثم إنه أولاً وأخراً هو الذي ألح على بني قريظة كي تنقض العهد، وتخلص من وعودها مع محمد، فكان أن طعن اليهود المسلمين في أخرج الأوقات طعنة نجلاء لا تنس!! أيمن أن ينسى المسلمون أمراً كهذا؟

إن حبي بن أخطب هو الذي قاد هذا التمرد وهو الذي ساهم بنصيب الأسد في تحريك تلك الفتنة لإشعال حرب كبرى تبديد

المسلمين عن آخرهم، فكيف يهرب هو ويترك ضحاياه يسقطون في مأزق خطر كهذا؟ إن الواجب عليه أن يبقى مسئولاً وقائداً، كما كان قبل النكبة، ليبقى لا حياً فيه، ولا إيماناً بخطئه الفاشلة في إثارة العرب ضد المسلمين، ولا حفاظاً على رجل مخلص عظيم في يده الخلاص، لا، ليبقى حيى بن أخطب وليقف في المقدمة كما كان، فإن حلت كارثة أخرى، وقعت على رأسه قبل رؤوسنا، وذاق مرارتها مثلما نذوق، وشعر بما يشعر به التعساء المعذبون من بنى قومه، ولقد كان حيى بن أخطب عند حسن ظنهم، إنه لم يهرب، فبعد أن رأى قریش وغطفان وغيرهما، أيقن الضربة التي كان ينوى توجيهها إلى محمد قد باءت بالفشل وأن محمداً بقى كما هو طوداً شامخاً، وقوة لم تضعف أو تنهار، وأيقن أن هذه لازمة سوف تزيد المسلمين قوة إلى قوتهم، وستجعل قلوب الناس تهفو إليهم، فيكثر أتباعهم ولم لا تهفو مشاعر الخلق نحو التوحيد والحرية، نحو راية القرآن الذى يجمع بين دفتيه خير الدنيا والآخرة.

والأهم من هذا كله، ماذا سيفعل محمد بيهود بنى قريظة، أولئك الذين نقضوا العهد فى أخرج الأوقات، وكادوا يتسببون فى فناء حقيقى للمسلمين، ويجعلون الدائرة تدور عليهم؟

هذا هو السؤال الذى يطن فى رأس حيى بن أخطب ورأس كعب بن أسد، وهو نفس السؤال الذى يتردد فى أروقة البيوت والشوارع والخوانيت، إنه السؤال الذى يشغل قريظة كلها، أيمكن أن يكون مصيرهم مثل مصير بنى قينقاع وبنى النضير؟ ماذا لو

أرسلوا الرسل إلى محمد، وبعثوا إليه بالهدايا، واعتذروا له عما بدر منهم، وأبدوا أسفهم العميق لما حدث؟ أيمن أن يعفو عنهم ويكتفى بأن يفرض عليهم غرامة مادية، ثم يعود لكتابة العهد المنقوض من جديد؟

وشعر حيى بن أخطب أن رأسه يكاد ينفجر إنه غريق فى بحر لجى من الحيرة والاضطراب والرعب، أجل، الرعب، يبحث عن قشة يمسك بها لعلها تأخذه إلى الشاطئ البعيد، شاطئ النجاة، والبحر مضطرب ثائر، والسماء سوداء ليس فيها بصيص من نور، وسمعه يزدحم بضجيج وصراخ وعواء، إنه يكاد يجن، أين أذهب؟ أه، لقد تذكرها، تلك المجنونة، العاقلة، اليهودية، تلك التى حذرتنا يوم بنى قينقاع، ونصحتنا قبل أن تحدث مأساة بنى النضير، والتى كادت تحن وهى ترانا نرتكب الخطأ الثالث فى بنى قريظة لقد حققنا من شأنها وسفهننا آراءها، ورميناها بالجنون والعته، إن لهذه المرأة كلمات واضحة صريحة وأحياناً لها تأثير نفسى طيب، لسوف أذهب إليها.

وأخذ حيى بن أخطب يتحسس الطريق إليها، وقصد إلى بيت صغير تأوى إليه، كانت تجلس منهكة شاردة النظرات، لم تنطمس بعد معالم وجهها الجميل، وعندما رآته كشفت عن وجهها الشاحب وقالت:

- هل أتيت؟

- أتيت محطماً عاجزاً أبحث عن نور.

- طأطأت رأسها في حزن وقالت :
- لقد خلفت النور وراءك يوم أن غدرت بعهد محمد .
- أما من عودة إلى هذا الطريق؟ ليس من أجلى، ولكن من أجل المفزعين من بنى قومنا .
- لست أملك الإجابة يا حبي بن أخطب .
- ودهش حبي إذ رآها هادئة حزينة وليست كما رآها لآخر مرة حينما كانت تصرح وتصيح وتحذر، وتعترض وتتقى بعض الكلمات الجارحة، وتمتم حبي : مابك؟
- لا شيء يا ابن أخطب .
- أراك هادئة، ألا تعرفين أنهم رحلوا، رحلت قريش والقبائل وتفرقت الأحزاب، وبقينا وحدنا، ننتظر .
- قالت ودموع تتسرب من خلف أهدابها :
- أجل إنني هادئة، لأن كل شيء قد انتهى .
- ماذا تعنين؟
- لقد استسلمت، لم يعد هناك جدوى من فعل شيء .
- إنني الآن أعيش على أمل الموت، أفئات الحزن وأذرف الدمع، واستشعر مرارة الندم .
- قال حبي وقد دق قلبه :

ألا تفكرين في مصير التعساء من بنى قريظة؟ ألا تفكرين فيما ينتظرهم؟

- لقد فكرت يا حبي عندما كان هناك جدوى من التفكير أما الآن.

ماذا؟

ليدفع الغادرون ثمن غدرهم، وليجاز الخونة على خيانتهم، هذا هو العدل.

قال حبي في ضيق: العدل..

أجل يا حبي بن أخطب، وماذا تنتظر من رجل أردت أن تقتله؟ وبأى وجه يقابلك المسلمون وقد غدرت بهم في أخرج الأوقات، ورسمت الخطط الرهيبة للقضاء عليهم وإفنائهم؟ ألا تعتقد يا حبي بن أخطب أن الجزء من جنس العمل، وأن في القصص حياة؟

لم ينكر حبي بن أخطب أنه ارتكب خطأ فادحاً، وأن بنى قريظة قد أتوا إنمأ باهظاً لا يمكن الإفلات منه، لكن حبي يبحث عن وسيلة يتقرب بها إلى المسلمين، ويترضى بها محمداً، لذا جاء إلى اليهود يسألها الرأي كي يستنير بتوجيهاتها، وقال حبي:

- إن محمداً ذو قلب طيب كبير يتسع صفحه لكل الخطاة.

سددت إليه اليهودية نظرات فاحصة وقالت:

- أعتقد ذلك حقاً؟

- بكل تأكيد، أنت تعرفين .
- أعرف أنك رميته بالقسوة و . . وأشياء كثيرة أراني في غنى عن سردها .
- قال متنهداً : آه . . إنني أعتب على ما فعله في بني قينقاع وبني النضير ، ولهذا رميته بالقسوة .
- وماذا تقول عن نفسك وعن بني قريظة ، أثناء تجمع الأحزاب خلف الخندق ، وانحيازكم إلى المعتدين في ذلك الوقت العصيب ؟ ألم يتفق محمد معكم أن تحموا ظهره ، وتمدوه بالطعام ثم غدرتم به في أخرج وقت ، وانحزتم لأعدائه ؟
- وسمعت دقات على الباب الخارجى ، ودخل أحد الرجال وقال في صوت متحشرج لاهث :
- يا حى بن أخطب ، ألم تسمع ما جرى ؟
- ماذا ؟
- إن المسلمين بقيادة محمد في الطريق إلينا .
- كيف ؟
- هذا ما حدث .
- إذن فلتسرعوا إلى حصونكم وقلاعكم ، والبسوا لباس الحرب ، وأعدوا أنفسكم ليوم عصيب ، إن لدينا من الأقوات والسلاح والرجال ما يكفي لصمودنا فترة طويلة .

وضحكت اليهودية في مرارة وهي تقول: «ألا تعرف كيف حدث ذلك يا حيي بن أخطب؟»

وأسرع حيي خارجاً: وكم كانت دهشته حينما رأى اليهود يعانون من ضيق شديد، ورعب قاتل، فلو صَحَّت شائعة قدوم المسلمين إلى هنا، فليس هناك مدعاة لذلك الرعب كله، إن لدى اليهود من الاستعدادات المختلفة ما يجعلهم في أمان لفترة طويلة، وحصونهم منيعة لا يمكن اختراقها بسهولة، ثم إن المسلمين ليس من المعقول أن يخرجوا لحرب قريظة في اليوم التالي لرحيل الأحزاب، إن المسلمين قد نالهم كثير من التعب والعناء، وهم يحرسون حول المدينة، ويرابطون إلى جوار الخندق، وينازلون الأعداء في معارك متعددة، فهل يصدق عاقل أنهم يخرجون تَوّاً لحرب قريظة، وهم أشد ما يكونون إرهاباً وأشد ما يكونون لهفة للقاء أزواجهم وأولادهم.

وأمام ما تموج به جموع قريظة من خوف وهلع، وقف حيي بن أخطب بينهم خطيباً وقال:

- يا بني قريظة ..

أراكم في هَمٍّ قاتل، إلا أنكم لتهمز مون أنفسكم دون أن توجه إليكم سهام من عدوكم، وتهدون لنصره عليكم، وأنتم في أيديكم القوة والصبر على البلاء، والصمود في الصباح والمساء ..

يا بني قريظة، إنكم أوفر مالا من محمد، وأكثر ماءً وأقوى شكيمة وأمنع حصوناً.



وصاح رجل وسط الجموع الهادرة وقال :

- يا حيى بن أخطب، إنك تخذعنا .

صمت حيى برهة، ثم مضى فى خطبته :

لقد أردت لكم الخير دائماً، حاولت جاهداً أن أرتفع باسمكم إلى عنان السماء، وأن أكيد لعدوكم وأرفع من شأن دينكم، وحاولت أن أحمل العرب لحماية تراثكم، من النبی محمد وصحبه، أما وقد حدثت أمور لا حيلة لى فيها، فليس معنى ذلك أننى أخدعكم . . وصاح رجل آخر من بنى قريظة مقاطعاً :

- يا حيى بن أخطب، أنت ترمى بنا فى المهالك .

صاح حيى بن أخطب بصوت محتبس .

- لقد أردت لكم النجاة يا بنى قريظة . . لم أكن أهدف إلا إلى السلام والمنعة لكم ولسلطانكم فى بلاد العرب وكنت أفكر فى إخوان لكم ساروا فى الدروب الطويلة وسط الصحارى القاحلة، يجرؤن خطاهم الذليلة فى أرض العذاب والضياغ .

وحدثت همهمات واعتراضات صاخبة، كلها يتهم حيى بن أخطب بالخطأ وسوء التقدير، وأدرك حيى أنه من العسير عليه أن يرد إلى هذه الجموع أمنها واطمئنانها بهذا الأسلوب، لا بد أن يبحث عن أسلوب آخر يناسب هؤلاء الذين تحطمت آمالهم، وتلوّث بالقاذورات، أسلوب يتفق مع ما يسودهم من ذعر وجبن

بالغين، إذ أن الكارثة وشيكة الوقوع والعقاب محقق، ولأن محمد أقوى الجميع في ذلك الوقت، واندحار الأحزاب قد قوى من جبهته، ورفع من روح جنوده، ولأن جريمة اليهود وإدانتهم أمر لا يختلف عليه اثنان، لهذا تصرف حيي بن أخطب بسرعة وغير أسلوبه في الحديث، واستطرد بخطب:

يا بني قريظة: يكفى ما تعرضنا له من هجوم ومآسى، وأراكم فعلاً متعبين وفي ميسس الحاجة إلى أيام من الدعة والهدوء، حتى تسكن نفوسكم وأرواحكم، وتستقر أفئدتكم، ولهذا سوف أوفد الرسل إلى محمد بن عبد الله مستعيناً بحلفائنا الأقدمين من الأوس والخزرج.

وسنبدى له أسفنا واعتذارنا، بل واستعدادنا المطلق لكل ما يطلبه منا، مقابل الصفح عما ارتكبناه في حقه من نقض للعهد، لقد كان في نيتنا يا بني قريظة أن نغتال محمداً وأن نقضى على المسلمين، لكن شيئاً من ذلك لم يوضع موضع التنفيذ، ومن ثم فإن فرصة الصلح مع محمد فرصة كبيرة، وبعدها يعود الوثام والاطمئنان وتسود روح الود والصدقة بين اليهود والمسلمين من جديد، وساد الصمت فترة وجيزة.

وعاد حيي بن أخطب يصبح قائلاً: ما رأيكم؟

قال أحد الشيوخ:

- لعل هذا هو التصرف الوحيد الذي قد يؤدي إلى حقن

الدماء وسيادة السلام وما أظن أن هناك بديلاً لهذا التصرف، وقال  
حيى بن أخطب معلقاً:

- ومع ذلك يجب أن نكون على حذر، سيوفنا في أيدينا  
ورجالنا في قلاعهم وحصونهم، ومداخلنا محروسة، والجميع  
على أهبة الاستعداد، إنه قد تجد أمور يا بني قريظة، فلا مناص من  
الحيلة والله الموفق.

وارتفعت ضحكة ساخرة..

وتلفت حيى بن أخطب، ليرى من هذا الذى لا يحترم مشاعر  
الأسى العمام الذى لف الربوع، وحط على قلوب الناس  
ووجوههم؟

- من؟ كعب بن أسد؟ أين كنت؟ ولم تضحك؟

استجمع كعب كل شجاعته وقوته، ثم بصق، بصق بقوة فى  
وجه حيى بن أخطب، وصرخ قائلاً:

- ألم أقل لك أنك امرؤ شؤم؟ ألم أقل لك يا حيى بن أخطب،  
إنك جئتني بذل الدهر، وكل ما يخشى، جئتني بجهاش قد هراق  
ماء، فهو يرعد ويرق وليس فيه شيء.

ألم أقل لك يا حيى دعنى وما أنا عليه، فإننى لم أر من محمد  
إلا صدقاً ووفاءً، عما تتحدث الآن أيها الشيطان؟ لقد أحاط بنا  
الفناء من كل جانب، إن الشيء الوحيد الذى يبرد غلتى، ويهدئ

من ثورتى ، هو أنك معنا ، معنا ، لتشرب من نفس الكأس المريرة  
المذاق ، تلك التى سنشربها حتى الثمالة ، أيها الملعون .



### الفصل الثالث

ران الصمت على يهود «خير»، وأنشحت النسوة بالسواد وماجت صدور الرجال بالحدق المتمزج بالخوف، وأدار سيدهم وملكهم «كنانة بن ربيع» رأسه إلى الآفاق الرحبة الممتدة إلى بعيد، يمسح الرمال الصفراء بنظرات حزينة، وتغلى رأسه بأفكار مضطربة راجفة، أهكذا تكون نهاية بنى قريظة؟

أهكذا تكون نهاية صهره الغالى العزيز حى بن أخطب والد زوجته الأميرة صفية؟ لو يملك سيد خير العدد الكافى من الرجال والسلاح لانقض على المدينة وجعل عاليها سافلها، ودمر مبانيها على رأس محمد وصحبه، وأشعل النار فى مساجدهم ومراعيهم وأحرق الرجال والنساء والأطفال أحياء، أجل أحياء حتى يتلذذ بما يقاسونه من عذاب وهوان، لكنها أمنيات عاجزة مقهورة، والعجز قاس رهيب يبعث المرارة فى مذاق الحياة، ويحيل بهجتها إلى أسى وضباع وحسرة، الحدق يأكل قلب سيد خير، وحيثما يكون الحدق، لا يفسح مجالاً للتفكير السليم أو المنطق الواضح الصحيح، الحدق يعمى العين عن رؤية الحقيقة ويسد فى العقل منافذ التحرر والإنصاف، الحدق أبكم وأصم وأعمى، لا يفعل سوى أن ينفخ النيران، ويبعث بمخالبه لتمزق وتريق الدم، الحدق رذيلة كبرى برغم ما حدث من مأسى، فإن سيد خير لن يهادن محمداً ولو أن

محمدًا أصبح أقوى منه، وسيد خيبر سيثيرها حرباً شعواء.

لقد كان حبي بن أخطب على حق حينما حشد قريش والقبائل واليهود في صف واحد لضرب محمد، ولن تنجح أية حركة تقوم ضد محمد إلا إذا سارت في نفس الطريق الذي سار فيه حبي، مع محاولة تجنب سوء الحظ الذي حالف التكتل السابق، إن على خيبر أن تعد نفسها ليوم مشهود، وأن تحشد كل إمكانياتها من مال وسلاح وأقوات ورجال للمعركة الكبرى، إن دماء قريظة تصرخ بالثأر، وذبح حبي بن أخطب كما تذبح الشاة مأساة كبرى لن يكون اليهود يهوداً إلا إذا مسحوا عارها وأسأها العميق.

أ يكون هناك نصر بغير تضحيات؟ أ تشتعل معركة دونها حقد دفين؟ إنه الوقود الذي سيدفع خيبر إلى خوض غمار حرب ضارية تأكل الأخضر واليابس، ووقف كنانة بن الربيع يتقبل العزاء في صهره، وأخذ رجالات خيبر يتقدمون إليه واحداً واحداً، إنه يضافحهم وهو في ذهول وكرب شديد، هيهات تغنى الكلمات عن المصاب الفادح وقف ابن الربيع بينهم خطيباً:

يا رجالات خيبر لقد فقدنا رجلاً عظيماً، ولسوف يمر وقت طويل قبل أن تجود السماء برجل مثله، إن حبي بن أخطب فلتة من فلتات الزمان، كان يعرف جيداً ماذا يفعل وكان يدرك أبعاد الخطر الإسلامي الداهم منذ البداية، عندما هاجر محمد إلى المدينة هارباً برجاله القلائل بعد أن كادت قريش تقتله، وفكر محمد في عقد

حلف مع يهود المدينة وضواحيها، رفض حيى ابن أخطب التوقيع على هذا الحلف فى البداية، وحذر اليهود من مغبة ذلك، وأفهمهم أن الاتفاق المزمع عقده يجعل من محمد ملكاً على المدينة وما حولها، ويقوى من شوكته، ويحمى ظهره ويجعله فى منعة - أو ما يشبه المنعة - من أعدائه القرشيين، كان محمد يارجالاً خبير رجلاً يحمل مبدأ وعقيدة، من السهل فهمها، وتقبلها لدى عقول العامة، ولم تكن قريش تملك هذا الرصيد، ومن ثم فإن قريش لا تشكّل خطراً حقيقياً على محمد ودعوته، نحن اليهود نشكل الخطر الحقيقى وحدنا، ومحمد كان يدرك ذلك، ولهذا حرص على التحالف معنا حتى يفرغ لأعدائه القرشيين وغيرهم من القبائل الجاهلة على أمل أن يزداد انتباهه وتقوى شكيمة، ويصبح القوة الوحيدة المهابة التى لا يستطيع اليهود ولا غيرهم التصدى له، كان حيى يدرك ذلك، ولما لم يستجب اليهود له، وأظهروا عدم مبالاهم، وكذلك استهتارهم بنوايا محمد ومطامعه، لم يطمئن حيى بن أخطب، وقف متيقظاً يرقب الأحداث، ويرى الخطر ينمو، فاندفع يدبر، ويحشد الحشود يضرب القوى النامية فى قلب الجزيرة العربية... إلى... إلى أن مات حيى بن أخطب شهيداً.

وجفف كنانة دمة سقطت من عينيه واستطرد قائلاً:

- ورأينا بأعيننا طرد بنى قينقاع، وشهدنا رحيل بنى النضير  
الحزين الباكي، ثم كانت الطامة الكبرى يوم دُبح المقاتلون من

بنى قريظة، وعلى رأسهم رب السيف والفكر والعقيدة  
حيى بن أخطب.

ثم صاح بصوت جريح:

- أترى تغيب شمسنا عن أرض العرب، ويضع محمد بسيوفه  
النهاية الأليمة للمحمة النضال اليهودى الصابر؟ والله إن بطن  
الأرض خير من ظاهرها، وهيهات أن تقر لنا عين، أيهدأ لنا بال  
ونحن نعيش تحت سيطرة محمد وتهديده.

وصاح رجل فى المؤخرة:

- يا كنانة بن الربيع، ليست الخطورة كامنة فى سيوف  
محمد، ولكنها فى أفكاره، فى سطور الكتاب المنزل عليه.

اهتاج ابن الربيع وهتف:

- دع أفكار محمد وقرآنه، نحن نتحدث عن الثأر والحرب  
إن الحديث فى مثل هذه الأمور يبعث الوهن فى النفوس، ويوقع  
بيننا الخلاف والتردد، لسنا على استعداد لأن نناقش أفكاره الآن  
لقد فات الأوان، وجرت الدماء بيننا وبينه، ونحن مؤمنون بديننا،  
ونرفض أى شىء جديد، نرفضه بشدة، ودون تردد، افهموا ذلك  
جيداً يا أبناء خير الأبطال.

وعاد رجل المؤخرة يقول:

- كلمات محمد يا سيدنا هى العامل الحاسم فى المعركة لماذا



نضع رؤوسنا في الرمال، ونتجاهل الحقائق الواضحة الصارخة؟ كلمات محمد هي التي صنعت رجاله، وشكّلت النسق الجديد لسلوكهم وأفكارهم، البطولات التي ظهرت بين يدي محمد وانبتقت من تعاليمه هي التي تهزمننا.

وهتف كنانة بن الربيع: وماذا نفعل إذن؟

- ندرس الرجل وأفكاره على ضوء جديد.

فقهه كنانة في حسرة..

- ندرس؟ إنه لشيء مضحك!، عندما تتم دراستك يكون كل شيء قد انتهى، يكون محمد قد استعد استعداداً كاملاً، وأطبق علينا من كل صوب، أو يكون نصف رجالنا الضعاف الإيمان قد تحولوا إلى دينه، وصبأوا عن دين الآباء والأجداد، هذا هو الموقف بصراحة.

إنني يا رجالات خبير لم أقف بينكم خطيباً، لأنتم بالقصائد في رثاء قريظة وحيى بن أخطب، ولم أتحدث إليكم لكي نتدارس أفكار محمد وكلماته وانعكاسها على رجاله، إنني أحدثكم فقط عن الخطر المحدق، وأذكركم بالثأر الذي يصرخ بكم، وأدعوكم لكي تعيشوا رجالاً أو تموتوا رجالاً، ولا شيء غير ذلك، وسأغلق سمعي عن تلقى أي حديث أو رأي خارج عن هذا النطاق.

طأطأ الرجال رؤوسهم صامتين، ولم يمنعهم ذلك من الحديث حول أفكار محمد وكلماته المنزلة من عند الله، وما يرويه القرآن عن

بنى إسرائيل، عن تاريخهم، وكأن محمدًا كان حاضراً في تلك الأزمنة السحيقة أيام موسى وهارون، وداود وسليمان، وزكريا ويحيى وعيسى، وألوان الغدر التي عرف بها بنو إسرائيل وانحرافاتهم القديمة، كل شيء يعرفه محمد إن كلماته حق، لو لم يكن لدى محمد معجزة لكفاء ما يكشف عنه من أفاصيص وأسرار بل إن معجزته الكبرى هو ذلك الجيل الذي أخرجه محمد إلى الوجود، الجيل الذي استخلصه من بين تقاليد الجاهلية ونزاعاتها وصراعاتها القبلية، وثاراتها الموروثة، وعقائدها المتعفنة الخاطئة.

قال رجل يهودى حكيم:

- أخطر ما في محمد أنه استطاع أن يحرر طاقات الإنسان فأبدع.

ورجل آخر قال: بل أرسى قواعد التوحيد في نفوس رجاله فأصبحوا لا يعبدون بحق إلا الله، ولا يخافون سواه.

وقال ثالث: كل واحد من رجاله يحاول أن يلحق بمرتبة النبوة وطوال الطريق إلى ذلك يتطهرون بالجهاد الدائب، والعبادة المتصلة، كل شيء عنده عبادة، العمل الصالح عبادة، حفظ آيات الله عبادة، الصدق والوفاء والأخوة، الفضائل كلها عبادة.

وقال رابع: إن كلمات محمد قد استجابت لأشواق الإنسان التائه الحائر، فوجد في ظلها الأمن، انظروا أيها السادة إلى محمد حينما يقول: «من بات آمناً في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فقد حيزت له الدنيا بحذاقها».

تنهد الرجل الذى كان يصبح فى المؤخرة وقال :

- فكيف تهزمون رجلاً هذا شأنه ، فلنبحث لنا عن طريق آخر غير الحرب .

وكان هناك حبر من الأجبار يستمع إليهم ، ويلتقط كل كلمة يتفوهون بها . فقال :

- ربما يكون الصواب قد حالفكم فيما تبدون من آراء ، لكن هذه الآراء قد تتغير إذا ما كنتم فى مركز المنتصر ، إن الهزيمة التى حاقت بنا قد جعلت كفة العدو هى الراجحة أظهرت مبادئه فى صورة من القوة والإشراق لا يمكن التصدى لها ، ولو انتصرنا لبحثتم عن روعة مبادئنا ، ولجلوتموها بصورة مشرفة وإنى لأرى رأى كنانة بن الربيع لنسترد كرامتنا ونقف على أرجلنا فى ثبات وقوة وثقة ، ثم ننظر فى عقيدتنا وعقيدة عدونا ، عندئذ يكون الحكم صائباً .

لم يعد هناك من طريق سوى الحرب ، ولا شئ غير الحرب وعاد كنانة بن الربيع إلى بيته وانقبض صدره حينما تنهى إلى سمعه صرخات ملئعة ، هذه صرخات زوجه صفية بنت حمى بن أخطب ، إنها تندب أباه ، وحق لها أن ترتدى السواد وتشق الجيوب ، وتلطم الخدود ، وتضع التراب على رأسها ، حق لك أن تفعل ذلك يا زوجتى المسكينة .

وعندما دخل كنانة مطأطئ الرأس رفعت إليه صفية عينين

دامعتين مملئتتين بالدموع وصاحت: مات أبي يا كنانة.

غمغم ابن الربيع: - لقد لاقى الله بطلاً شهيداً.

- أنتم تخذعونى؟

- أو تشكين فى ذلك يا امرأة؟

- أنتم الذين دفعتموه إلى الفناء، تركتموه يسقط دون مبرر.

- أنت تخطئين يا صفية، لقد سقط دفاعاً عن شرفه وشرف عقيدته، مات وهو يردد: لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر، وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل، هكذا كان يقول، لم يتزعزع إيمانه أو يفقد ثقته بنفسه، تحدى السيوف والموت وتقريع محمد له لو كان كل اليهود على شاكلة أبيك لحطمتنا محمداً منذ زمن بعيد.

وعادت تولول وتقول:

- قولوا ما شئتم، فليس فى رأسى سوى حقيقة واحدة.

حقيقة مِرة أليمة وهى أن أبى مات، مات حزيناً تعساً، وأنتم هنا تنعمون بالحياة، وتأكلون وتشربون.

اكفهر وجهه وهتف:

- تعست حياتنا إذا لم نقضها فى مواصلة الصراع، والعمل على الأخذ بثأره من محمد وأتباعه.

- أو تعودون للشقاء مرة ثانية؟

- لن ننكص أو نتراجع، وشردت بنظراتها الدامعة، وأخذت تقول:

- قلت لأبي مسحذرة: دعك من هذا الصراع الذى لا طائل تحته، فإذا كان محمد نبياً فلا مجال لمعاداته بل الأوفق الإيمان بدعوته، وإن كان غير ذلك فسيضع الله حداً للدعاوى الباطلة.

زم شفتيه، وقرب حاجبيه وهتف:

- السيوف وحدها هى التى تضع الحد للدعاوى الباطلة، وابتلع ريقه، ثم عاد يقول:

- إن فداحة المصاب قد أوعزت إليك بالأراجيف، وبذرت فى نفسك الوهن، لا كنت صفية بنت حى إذا لم تطربى لاستشهاد أبيك، وتسيرى على نهجه.

فلم يرق لها حديث زوجها بل أخذت تستمع إليه فى ضيق وامتناع، وتمنت فى هذه اللحظات، أن تحرف الأوحال يديها، وتلطح وجه زوجها بها وتصرخ فيه:

- أنتم تكذبون، أنتم عصاة الحقد النجس والزيغ القديم والانحراف الأزلى، إن محمداً على حق، وأنتم على باطل، إننى أعرفكم جيداً، وأعرف البشارات التى أنبأت عن ظهور النبى الجديد، البشارات التى تخفونها وتكرونها، لكنها لن تستطيع أن تنطق بمثل هذه الكلمات، إن صورة أبيها الذبيح، ودمه المراق ولحيته البيضاء، وموقف الذلة والهوان، شئ لا يمكن أن تنساه وشئ آخر يشب إلى ذهنها من أن لأخر فى هذا الموقف المؤلم الحزين، أو تلك الرؤيا الغريبة؟ ذلك القمر القادم من المدينة إلى

خيبر، ذلك القمر الذى مال من أفقه، وانحدر صوبها، ثم استقر  
فى حجرها يالها من رؤيا غريبة! وهل تنسى أن زوجها كنانة بن  
الربيع قد سدّد إلى وجهها لكمة قوية عندما أخبرته بالرؤيا؟  
لكن أباه مات.

لا يصح أن تستسلم للهواجس وتذكر هذه الرؤيا فى معمعان  
الحزن الدايم، والأسى الصاحب الذى يلقى ظلاله الكثيفة على  
الربوع، ويوشح الأفق المعتم بأرديته السوداء.  
وعادت تصرخ: واكرباه!! واجيباه!! وامصيتاه!!



### الفصل الرابع

هتف كنانة بن الربيع بزوجه صفية ابنة حبي بن أخطب قائلاً:

- صفية أين أنت؟

وقدمت صفية شاحبة الوجه، حزينة العينين لا يبدو على ثيابها أدنى أثر للأناقة أو الاهتمام وخصلات شعرها تنفر من تحت شالها الأسود، معبرة عن الإهمال الزائد، ومع ذلك فإن هذا كله لم يستطع أن يطمس مسحة الجمال الرائق الجذاب التي تنطق بها ملامحها المتناسقة، بل لعلها بدت في هذا الإطار المهمل وكأنها أكثر جمالاً ووقاراً، ووقفت محنية مطأطئة الرأس وهمست:

معذرة: كنت مشغولة ببعض شئون البيت.

انفجر في غيظ: ماذا جرى لك؟ إننى لا أطيق هذه المعاملة، فلأكن جزء من شئون المنزل، إنك تتجاهلين أمرى، وتكبدينى الكثير من الضيق والكدر، إننى أرفض هذه المعاملة، وأنحى باللائمة على هذا السلوك الشائن.

تمتمت في نبرة احتجاج: «الشائن؟».

- أجل، إنك لا تراعين حقوق الزوجة، ولا تعطينى حقى من الرعاية والاهتمام، إن نسوة «خير» كلهن يتحدثن عن انطوائك المريب، وصمتك الزائد.

قالت وقد تددت عيناها بالدموع:

- انطوائى المريب؟ كيف تقول هذا الكلام، الجميع يعرفون مأساة أبى، فهل على لوم إن أنا انشغلت - على الرغم منى - بالحزن عليه؟

صاح فى حدة: وأنا؟

- أنت زوجى .

- هذا لا يكفى، إن كأس المنايا دوار على كل الشفاء كل ما فى الأمر أن أباك سبق إليه، ولم يكن وحده كان معه المئات .

- ما كان أبى مثل كل الرجال . «كفى ما كان» .

- ماذا تعنين؟

لم يعد هناك مسوغ لمزيد من الدماء .

- إنك تنطقين بكلمات خطيرة يا صفية، أهون ما تعنيه أن أباك لم يكن على حق، وأن مستقبل اليهود لم يعد يؤرقك

- لكل وقت ملابساته .

- إنك تشردين بى إلى قضايا خطيرة إلى متاهات مرعبة لندع أمر محمد والحرب واليهود، إنك فى هذه الأيام تهريين منى وتتحاشين اللقاء بى، وتنامين وحدك، إننى بدأت أشك فيما يربط بيننا من رباط مقدس، مستحيل أن يكون السبب هو ما يعتمل فى قلبك من أحزان إننى لا اقل عنك حزناً على ما أصابنا نحن اليهود



من مصرع أبيك العظيم، إن هول الكارثة لم يأخذ بيدي إلى ظلام اليأس، بل أشعل في قلبي الجذوة الملتهية، جذوة الحقد ضد محمد والمسلمين من ورائه، الحزن ليس معناه أن أتجاهل نداء الحياة والواجب.

قالت في ضراعة:

- صدقتي يا «كنانة» لا حيلة لي فيما أفعل، ولا سيطرة لي على مشاعري، إنني لا أستطيع أن أضع للحزن مواصفات معينة أو موازين دقيقة، إن حزني لا يعرف التعقل أو الدقة، إنه طوفان عارم يشل إرادتي، ويفرقني في أمواجه الصاخبة، ويقذف بي هنا وهناك، إنني أتخبط يمنة ويسرة لا أعرف لي قرار ولا أرى شاطئاً للنجاة، نحن في أيام شقاء مريع، إنني أستغرق في النكبة وأتمثلها بكل أبعادها، إحميني يا «كنانة» إنني عاجزة عن الثبات، أبحث عن الصبر فلا أجده، وأتلمس اليقين في مظانه، لكنني حائرة ممزقة، إنني أضرع إلى الله، أتراه لا يستمع لندائي، أنا صادقة الرغبة في النهوض والتماسك لكن قواي منهارة تماماً.

هَبْ واقفاً واقترب منها، وأمسك بيدها الباردة، وقال وهو يرمق أهدابها المبللة بالدموع:

بالله عليك لا تقولي هذه الكلمات يا صفيّة، إنها قاسية، إنها أقسى على من ضربات السيوف، لم يزل في الحياة بقية من أمل، ونحن لا نستطيع أن نسحق ما تبقى من أيماننا تحت معول الأحرار

الهدام المدمر، لو لمح الناس أحزانهم لانطفأ كل نور في الحياة، ولتلتخج جبينها بالسواد الكافي، هيا انفضى عن كاهلك ما يثقلها من هموم، إن ميتة أبيك ميتة بطل لم يدخر وسعاً في سبيل الحفاظ على شرفه ومبادئه، وهذه الميتة تبعث على الفخر والسعادة ثم تلثم وطأطأ في أسى وقال:

- وأنا أحبك يا صفية، أحبك لدرجة العبادة ولا أستطيع أن أتحمل غيابك عنى ساعات معدودة، أنت حياتي وهنائي ووجودي فلا تعذبينى بهذا الصد ولا تمزقي قلبي بتجاهلك لى، ارحمى.

وشردت صفية إلى بعيد، ها هى الرؤيا الغريبة تثبت إلى ذهنها، القمر الوافد من آفاق يثرب، ذلك القمر الذى يدنو صوبها رويداً رويداً ثم يهبط إلى حجرها.

- «فيم تفكرين يا صفية؟»

تداركت أمرها، وأفافت من شرودها، وقلبها يدق فى عنف وقالت متلثمة:

- وما قيمة الحياة التى يتهدها الفناء، وتحرق بها الأخطار من كل جانب؟

- لا تحملى همّاً يا حبيبتي، لدينا من الذهب ما يكفينا مئات السنين، هل نسيت يا صفية أننى أمتلك كنز بنى النضير، كمية ضخمة من الذهب أخفيها عن العيون، لا يعرف أحد أين هى، إنها تكفل لنا العيش الرغد طول حياتنا، فإذا ما تأزم الموقف، وأطبق

علينا الخطر استطعنا أن نحمل كنزنا ونهرب إلى أى مكان . . إن ما أفكر فيه هو أنت يا حبيبتي ، إننى لا أفكر فى حرب محمد إلا من أجلك أنت ، ومن أجل أبيك ، إننى أحاول جاهداً أن أحفظ عليك كرامتك ودينك ومستقبلك .

وأخذ كنانة يصب فى سمعها كلمات الحب والغزل ويغمرها بآيات صدقه ووفائه ، ويعتذر لها عما بدر منه من عنف أو قسوة فى ماضى الأيام ويؤكد لها أن كل ما كان يقدم عليه إنما كان انفجاراً عما يشعر به من تجاهلها له وبرود عاطفتها نحوه ، وهل هناك ما هو أشد حدياً عليها ، وتشبهاً بها ، وجأً لها من زوجها؟ والغريب أن هذا التوسل المتزايد وهذه الاعترافات الدليلة لم تكن تزيدها إلا نفوراً منه ، واستنقلاً لظله ، وتبرماً بحديثه .

- لو كنت تحبنى حقاً يا «كنان» لاحترمت أحزاني .

- إننى أشفق عليك ، وأريد أن أنسيك بعض ما تعانين من آلام ، والحزن لا يمنع الناس من أن تأكل وتشرب وتنام وتمارس حياتها الزوجية ، الناس يموتون والأطفال يولدون ، والحروب تشتعل ، والسلام ينشر ظلاله ، والحياة تمضى يا حبيبتي وأفلتت منها كلمات خطيرة ، قد يكون لها وقع الصاعقة لو أدرك معناها ، قالت : ليست هذه القضية .

رفع حاجبيه فى دهشة وقال :

- ما هى القضية إذن؟

- ورفع «كنانة» حاجبيه فى دهشة وتنهت وأعطها أذنأ صاغية،  
وأدركت هى ما تورطت فيه من تعليق فأسرعت فائلة:
- القضية هى عجزى الشنيع عن مقاومة الضعف والخرن.
  - قال وقد انجأ عن قلبه ما اعتوره من هواجس مخيفة.
  - طيبى نفساً يا حبيبى، لسوف أبقي إلى جوارك محاولاً
  - بكل قوة - أن أخفف عنك، وأن أمسح دموعك الغالية، وأن  
أذهب عنك الأرق والوجوم.
  - وصمت برهة، وهتف وقد أخذته العزة:
  - ولسوف يأتى يوم أقدم إليك فيه أروع هدية تحلمين بها.
  - قالت دون اكتراث:
  - كنزك المخبوء؟
  - قهقه فى مرح وقال:
  - لا . . إن كنزى ملك يمينك الآن.
  - فشد انتباهها إليه، فقالت:
  - أية هدية تقصد إذن؟
  - قال وقد تصلبت ملامح وجهه:
  - رأس محمد
  - خفق قلبها فى رعب، وصرخت - ماذا؟

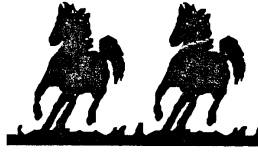
قال وقطرات من عرق تلمع فوق جبينه :

- إن ضربتنا هذه المرة ستكون قوية حاسمة ، ولن تكون هذه أول من يقتل فيها اليهود نبياً لا يروق لهم ، وعندما يتحطم البناء الشامخ الذى حاول محمد أن يقيمه على مدار السنين ، فلسوف يسقط فى أيدينا وعندئذ أجتز رأس محمد دون رحمة أخذاً بثأر أبيك ، وسأحمل إليك هذه الرأس الغالية ، وألقى بها فى حجرتك على حين غرة وستصرخين فى البداية مذعورة ، ثم نضحك ، ونملاً الآفاق مرحاً ونشيداً ، ونغنى على أشلاء المسلمين ثم ابتلع ريقه ، وأفاق من أحلامه الدامية الحمراء وقال :

- أليست هذه أروع هدية تحلمين بها؟ سيكون العلاج الناجح لكل آلامك وأحزانك ، فماذا تقولين؟

ألقت بجسدها المتعب على وسادة قريية وهى تقول :

- إن رأسى يدور وعينائى لا تكادان تريان شيئاً ، إننى خائفة القوى متعبة ، أبغض شئ إلى نفسى حديث الدماء ، سدد إليها نظرات حائرة مستغربة وبقي فى مكانه صامتاً .



### الفصل الخامس

وضع كفه اليمنى فوق حاجبيه مبسوطة ليتقى ضوء الشمس  
القوى نظر إلى بعيد، هناك على بُعد أميال تقع «خير» وامتطى  
ناقته وحثها على المسير، كان يمشى وحده، لكنه يشعر بضعف  
بالغ، وأسى مكتوم، وسمع صوتاً من خلفه يهتف به:  
- إلى أين يا عبد الله بن أبي؟؟.

التفت المنافق الأكبر خلفه في ازدراء ورمى محدثه بنظرة  
عاتبة، لماذا يصبر على التدخل في شأنه أو التدخل فيما لا يعنيه؟؟  
آه.. إن عيون محمد تنبث في كل مكان، إذا تكلم أو مضى  
لبعض شأنه لاحقته العيون والاستفسارات، إنه حصار سمج  
مميت، لكن عبد الله بن أبي تمالك أعصابه وردَّ قائلاً في سخرية:  
- «رحلة إلى الله»..

وتركه وانطلق بناقته التي تسرع الخطوة نحو «خير» وخير غنية  
بالذهب والزرع والضرع وفيها الرجال الأشداء المغاوير، وفيها  
الحصون المنيعة، والسلاح الوفير، وفيها «سلام بن مشكم» القائد  
الهام، وفيها «كنانة» بن الربيع الزعيم اليهودي الثائر زوج صفية  
بنت حبي بن أخطب، أجل هناك الحقد العظيم المدمر، وفي قلوب  
الرجال رغبة عارمة إلى الثأر، الثأر لبنى قينقاع والنضير وقريظة،

ولكعب بن الأشرف وحى بن أخطب وكعب بن أسد وغيرهم، هؤلاء الأصدقاء الأوفياء الذين ضحوا بكل شيء ولم يهدأ لهم جفن، أو يطمئن لهم قلب إزاء الصراع مع محمد، وظلوا أوفياء للحقد العظيم حتى لا قوا حتفهم، وفي خير يا عبد الله بن أبى تجد البيئة الصالحة لدعوتك، وتجذ العقول المفكرة القادرة على استيعاب آرائك واستقراءاتك للأحداث المقبلة، لم تزل خير أرض الأمل، وقاعدة الانطلاق لتدمير محمد وهدم البناء الصلد الذي أقامه ووقف فوقه يكبر ويهزل، ويدعو الناس للانضواء تحت لوائه، وتذكر عبد الله فجأة ما قالته له زوجته بالأمس القريب:

هناك فى الصحراء المترامية لكل إنسان حفرة ضيقة لشد ما يؤلمه أن يستمع لهذه الكلمات، إنه متشبث بالحياة، أشد التشبث، يكره أن يموت، أيموت محطم النفس والروح مهزوماً؟؟ أتذهب كل الجهود التى بذلها فى حياته هباء ألا إن ضربة الموت قاصمة، لا نجاة منها ولا مهرب، وهذا ما يحزنه، حفرة ضيقة يطوى فيها جسده، ثم تمضى الأيام وهو فى صمته البارد المتعفن ومحمد يصول ويجول، ويحشد البشر تحت لوائه، ويتدرد اسمه فى الآفاق وير الناس على قبرى أنا، فيبصقون ويهتفون:

- لعنة الله عليك يا ابن أبى، ويلحقنى العار حياً وميتاً، وأخذ عبد الله يلهب ناقتة بعصاه فى انفعال شرس، لكأنه يريد أن يسبق الأحداث والأيام يجب أن يسبق الموت ويتحدى الضعف والشيخوخة والفشل، إن الإصرار والمغامرة تصنعان الرجال وهو

يشعر - برغم ضعفه وشيخوخته - أنه أقوى من الموت وأقوى من  
الفشل، وتذكر كلمات زوجه وهو يعد راحلته للسفر: إلى أين  
تذهب يا عبد الله؟؟

إنك لم تعد تقوى على أعباء السفر ووعثائه فقهقه في فظاظه،  
وأخذ يحدث نفسه: لم أزل قادراً على السير، واحتمال أهوال  
المعارك، إن بى طاقة من الغيظ تستطيع أن تلهب عزائم الألوف من  
الرجال، إننى جيش بأسره، وغداً تعرف زوجتى، ويعرف محمد  
من أكون، لقد استطاع محمد أن يلهب خيال الدهماء بأحاديث  
عذبة عن الجنة والنعيم فتسابقوا إلى الموت فى جنون، هكذا الناس  
دائماً تحركهم عواطفهم، ويغريهم زيف المنى والأحلام، الحقيقة  
المرة لا يستسيغها أحد، لا بد أن تُقدم إليهم فى إطار من الخرافة  
والشعر والإثارة، وأدرك أنه يفتت على محمد ويظلمه، إن  
محمد فى الحقيقة لا يزيف ولا يخدع ومحمد على الرغم من روعة  
بيانه، وحلو حديثه، وبلاغة منطقته على الرغم من كل ذلك فإن  
كلماته تتفق مع العقل، وهل فى الإمكان أن يتسابق الناس خلف  
عبارات طنانة وخرافات منمقة ويبدلون أرواحهم فى سبيلها؟؟

وسرعان ما تذكر عبد الله أن هذا المنحى من التفكير، سيبدد  
فى نفسه التردد والشك، وسيضعف من عزيمته، ويوهن من  
إصراره وعناده فاستبعد بسرعة الأفكار الخطرة، إنه يخاف على  
نفسه من نفسه.



ويلغ عبد الله بن أبي «خير»، وكان في استقباله «سلام بن مشكم» قائد خير، وكنانة بن الربيع وعدد من زعماء اليهود، فاستقبلوه بحفاوة بالغة، وعناق مؤثر، وعبارات ترحيب مألوفة، وتمتم عبد الله في انفعال «أرقتني الدماء التي سفكها محمد ظلماً، وآلمني غدر قريش، إن عويل الأبرياء من بني قريظة مازال يطن في أذني، لكن الذي يخفف عن أساي هو أنني أرى أمامي رجالاً».

ثم قال: هل تسلمتم رسالتي؟؟

- بالطبع، ولهذا وجدتنا في انتظارك، كنا نترقب قدومك على أحر من الجمر»

وكان اللقاء في بيت «سلام بن مشكم» حيث التقى عبد الله في المساء بعدد من زعماء خير يتدارسون الأمر، ويعدون له عدته، وفي رأس كل منهم ينتصب شيخ محمد كبيراً مسيطراً مهيباً، ولا يستطيع أحدهم أن يبعده عن ذهنه أو ينساه لحظة، وابتدروا عبد الله قائلاً:

- الأيام تسرع الخطى، والزمن في صالحه.

قال كنانة: ونحن نقضى النهار، وجانباً كبيراً من الليل لا نفكر إلا فيه، محمد.

قال عبد الله: إنه يعتزم المسيرة إلى مكة.

قال سلام بن مشكم:

- إنه يسير إلى حتفه بظلفه، لقد بلغنا نبأ ذلك فطربنا له، وخاصة بعد أن تأكد لنا أن قريش لن تدعه يدخل مكة، فيلحقهم

العار والشنار، والأهم من هذا كله أن قريش قد لبست لبوس الحرب، وتنادوا للسلح وأقسموا ألا يدخل عليهم محمد، ومحمد في نفس الوقت مُصر على الدخول، ما معنى ذلك أيها الرجال؟؟ معناه الصدام الأكيد، إن الغرور سيدفع المسلمين إلى الاعتصام بسيوفهم، وفي هذا الفناء الكامل لهم، وخاصة لو تدبرنا أمرنا، وطعناه من الخلف، وداهمننا المدينة في غيبته.

ابتسم عبد الله في ثقة، وقال:

- اسمعوا إلىَّ جيداً أيها الرجال، إنكم على الرغم من كل ما حدث ما زلتُم تجهلون محمداً، ولا تدركون الهدف من وراء أفكاره العميقة، وإنني أرقبه عن كثب، وألاحظ سلوكه وأوامره لرجاله، وحكمه على الأشياء صغيرها وكبيرها، وهو لا يُقدم على شيء إلا بعد تفكير دقيق، والاستعداد لكل طارئ، هل تعتقدون أن محمداً يغامر - بكل بساطة - بمستقبله ورجاله في معركة غير متكافئة وغير مضمونة النتائج؟؟

ردوا جميعاً بصوت يكاد يكون واحداً:

- إنه أشد حرصاً مما نتصور.

- إذن فمن العسير أن نقتنع بأنه خارج للحرب، إن معه أربعمئة وألف من الرجال، وليس معهم سوى السيوف في أغمادها، وعدد من الهدى لنحرها، لقد أشاع في كل الأنحاء أنه لم يخرج للحرب وإنما خرج لأداء الحج مثله مثل أبناء العرب في كل

مكان، إنه لا ينبغي سوى السلام والمحبة والسماح له بتأدية الشعائر، فلو انقضت عليه قريش للامها العرب وعابوها، بل لن تجد قريش من يشاركها هذا الإثم، وعلى أسوأ الفروض، لو قامت معركة ما بين المسلمين وقريش، فإن في مكة مسلمين أخفياء يشكلون حماية لمحمد، ويستطيعون أن يغيروا من نتيجتها لصالح صاحب الرسالة، وفي مكة أيها الرجال - عدا المسلمين - أقارب وأصهار للمهاجرين والأنصار، ولو تمادينا في تصوراتنا لحدوث معركة، فإن محمداً قادر على أن ينسحب بقواته عند الخطر، وينقذها من فناء كما حدث قبل ذلك، وهل نسيتم أن غير المسلمين قد اشترك في الحج مع محمد حيث دعا جميع القبائل المجاورة للمدينة على اختلاف عقائدها للخروج معه؟؟

كان اليهود يستمعون إلى حديث عبد الله في اهتمام بالغ، ويستوعبون كل كلمة يقولها، ويبدو على وجوههم الإعجاب الشديد لحسن فهمه للأمور، واستنباطاته لمجريات الحوادث، وبينما هم مندمجون في التفكير، واستعادة ما قاله عبد الله، إذ فتح باب الحجرة عنوة، ودخلت امرأة شبه ملثمة، وقالت:

- لا بد أن أشارككم في هذا الاجتماع الخطير، إن اليهود اكتتوا بنار المذلة والعذاب، رجالاً ونساءً، وشيئاً وشباناً، انتفض سلام بن مشكم واقفاً، وصاح:

- لا مكان للنساء هنا يا زينب بنت الحارث، وعندما يعجز

الرجال عن تدارك الخطر الداهم، أو ينوءون بثقل المسئولية، لتحضر النساء، لكنها لم تبد اهتماماً يُذكر باعتراض زوجها سلام بن مشكم، وجلست في مكان قصي وهي تقول: بل سألني مهما كان الأمر.

فتدخل عبد الله بن أبي قائل:

- دعوها، فليس في حضورها من بأس.

وعاد الرجال إلى حديثهم الهام وقال كنانة:

- إن الأمر أعقد مما كنت أتصور لم يتبادر إلى ذهني سوى أن قریش ستشهر سيفها في وجه محمد، وترده جريحاً مهزوماً، لكنني أعتقد الآن يا عبد الله أنك قد أصبت كبد الحقيقة.

وقال سلام بن مشكم:

- إن محمداً في معاركه كان يلجأ دائماً إلى موقع حصين يحميه، أو جبل يستند إليه أو حيلة بارعة يضرب بها خصمه، أما أن يدفع رجاله بعيداً عن المدينة، دون أن يكون لديه السلاح الكافي أو العدد الكافي من الرجال، فهذا أمر غريب غاية الغرابة.

إنني بدأت أشك في أن خيانة كبرى ستتركب داخل مكة، إن أبا سفيان وزعماء مكة سيضربون من الخلف، وإلا فكيف تتصورون أن محمداً يواجه مكة بأسرها بهذه الحفنة من الرجال؟؟

عاد عبد الله يبتسم من جديد ويقول:

- ليس لدى ما أضيفه، لقد قلت ما أعتقد أنه عين الصواب، الاحتمالات التي أمامنا، هي: إما أن تسمح قريش له بزيارة البيت الحرام وهذا قد يؤدي إلى تخفيف حدة العداء القائم بينهما، وإما أن يعود محمد بخفي حنين، ومن ثم لا تكاد تمر فترة إلا ويهب محمد لفتح الطريق إلى الكعبة عنوة، ويحتدم القتال من جديد وأمام هذه الظروف لابد من السير، في طريق الشهيد السبيء الحظ حيى بن أخطب.

قالت زينب زوجة سلام بن مشكم سيدة قومها:

- أو تعتقد يا ابن أبي أن في الإمكان حشد غطفان وقريش والأحزاب من جديد، بعد الفشل الذريع الذي منينا به؟؟

قال عبد الله:

- ولم لا يا بنت الحارث؟؟ إن نار الحق ضد محمد لم تزل محتدمة الأوار في قلوب الرجال، بل إن الفشل قد زادها اشتعالاً، قالت زينب دون أن ترفع النقاب عن وجهها، ودون أن يدرك أحد ما يرسم على وجهها من انفعالات حاقة:

- إن أقصر طريق هو قتل محمد.

قال عبد الله بن أبي:

- هذا ما فكرنا فيه قبل ذلك، حاولت ذلك بنو النضير، ولكن عمرو بن جحاش فشل، وأنزلوا به العقاب الرادع، وقتلوه.

قالت زينب: إن الفشل مرة لا يعنى التوقف عن المحاولة،

وقامت ضجة تحتج على رأيها الساذج، فلوح عبد الله بيده قائلاً:  
 - دعوها، ما التقينا هنا في خيبر يا حلفائي المخلصين إلا  
 لتداول الرأي نقلبه على جميع جوانبه، ولن نخسر شيئاً.  
 - لم لا تبعثون إليه رجل يعلن إسلامه، ثم يدس له السم في  
 الطعام؟؟ فإن نجح رسولنا فقد أغنانا السم عن جيش بأسره، وإن  
 فشل فلن نخسر إلا واحداً.

قال كنانة بن الربيع:

- أيها الصديق الوفي عبد الله بن أبي، لقد عاشرنك، وراقبنا  
 سلوكك إبان الصراع الدامي مع محمد فلم نجد فيك إلا الوفاء  
 والمروءة، ولن ننس فضلك يوم أن أنقذتنا من سيوف محمد في  
 حصار «بني النضير» يوم هربنا بجلدنا ومالنا، نعم الأخ أنت!! إنك  
 مثال رجل المبدأ والعقيدة، لا تحيد عن فكرك قيد أنملة، وتحملت  
 في سبيل ذلك ما تحملت، وإن رجالاً هذا شأنهم لواصلون إلى  
 النصر مهما كانت التضحيات، ومهما طال الزمن، وأمام هذا الود  
 القائم فإنني أزف إليك بشري سوف يطرب لها قلبك، وتطيب بها  
 نفسك، إن غطفان وافقت مبدئياً على أن يضمنا وإياها حلف وثيق  
 كي ننهض لحرب محمد، ونحن الآن في طور الإعداد والتجهيز،  
 وعندما يأتي الموعد المضروب فسترى بعينيك مصارع الأعداء، عند  
 ذلك تجف الدموع على شهداء قريظة، ويعود الحق إلى نصابه،  
 ويعود إليك حقلك وتاجك المسلوب.

وسادت فترة صمت، قال سلام بن مشكم بعدها:

غير أن مباحثاتنا مع قريش لم تصل إلى نتيجة بعد.

ابتسم عبد الله في دهاء وقال:

- أو تظن أن أمر حديثكم مع غطفان يخفى عليّ، لقد مهدت لذلك ما استطعت وبعثت برجالى إلى هناك، ثم إن ثقتى الكبرى مازالت مقصورة على قريش هي الأخرى.

والتفت إلى زينب قائلاً:

- ويجب ألا ننسى وجهة نظر زينب، فإن طعنة في الظلام أو لقمة سائغة محشوة بالسم قد تمهد السبيل لزحف شامل لتطهير الأرض من سلطان محمد.

قالت زينب فى حماس:

- لا فض فوك، نحن النساء نُقدّم جواهرنا ومالنا وكل ما نملك حتى لا نصبح يوماً فى عداد السبايا، إننى كلما تصورت أيها الرجال أنه قد يجرى علينا ما جرى على بنى قينقاع وقريظة والنضير، وقد تصبح زينب بنت الحارث زوجة ابن مشكم، وصفية بنت حبي زوجة كنانة ضمن السبايا، كلما تذكرت ذلك دارت بى الأرض وأصبح مذاق الحياة فى فمى كالعلقم، وأية حياة يحلو مذاقها بعد ذلك؟

فالبدار البدار أيها الرجال قبل أن نجثو على أقدام محمد ونعفر

جباها العالمة بتراب نعلية، وقبل أن يصبح نساؤكم إماء لزوجات  
 محمد، وخادما للأنصار والمهاجرين، وابتلعت ريقها ثم قالت:  
 لم تعد المسألة مسألة صراع بين دينين فحسب، بل هى مسألة  
 الكرامة قبل كل شىء فذودوا عن نساءكم وكرامتكم ولو تخضبت  
 الأرض بدمائكم جميعاً، فلا قيمة للحياة مع الذل والهوان.

شعر عبد الله بن أبى بما يشبه الدوار، أين زينب الشجاعة من  
 زوجه الغادرة التى استعدتها كلمات محمد وقهرتها، فوفقت  
 تتحدها فى تبجح، وتنال من أفكاره الرائعة؟

وتتم عبد الله وهو يرمق زينب بنظرات الإعجاب.

- نعم الزوجات أنت!!





### الفصل السادس

قالت زينب بنت الحارث لزوجها سلام بن مشكم:

- ما استشعرت العجز في حياتي كما أستشعره الآن.

قال زوجها:

- ويحك يا امرأة!! هذا كلام لا تقوله زوجة سلام، فأنا

فارس خير، قائد جندها، وأنا أملك القوة والمال والسلطان اليهود ورائي، ماذا بعد ذلك؟

قالت:

- كل هذا ليس له أدنى قيمة ما دام محمد على ظهر الأرض.

- أو تسمين التأنى والصبر عجزاً؟

- بل جنباً رخيصاً.

فهقه في ثقة وقال:

- النساء متعجلات عاطفيات.

- أريد أن أشرب من دمه، وألوك كبده، كما فعلت هند

بحمزة بن عبد المطلب.

- ولم تستبعدين ذلك؟

- شردت بنظراتها الخائفة إلى بعيد وقالت:

- لقد فاوضته مكة مفاوضة الند للند، وهذا كسب كبير
- حققه محمد، واتفقوا على هدنة طويلة، وسمح للمسلمين بدخول مكة العام القادم لزيارة البيت الحرام.
- ثم التفتت إلى زوجها قائلة في حدة.
- أتدري معنى هذه الهدنة!
- أعرف، لكى يتفرغ لنا.
- فماذا تنتظرون إذن؟
- كلما زاد انتشاء محمد بالنصر واتسع نفوذه، ازدادت المخاطر إحاطة به، أتفهمين؟
- الانتصارات الصغيرة لا تلفت النظر أما الآن وقد علا نجم محمد، وازداد المؤمنون به، فمعنى ذلك الإسراع فى النهوض إليه، والقضاء عليه قضاءً تاماً، تسائلين كيف؟
- لقد جرت بيننا وبين الروم اتصالات واتصالات، «وهرقل» أخذ يقتنع بخطورته على دينه وعلى ملكه، إن هرقل لا يطمع فى هذه الجزيرة الجرداء، فهى فقيرة مقفرة، لكن عندما يدرك أن خطراً يهدده فلن يتوانى لحظة عن حشد جزء من جيشه لدفن محمد ودعوته فى تلك الأرض القاسية، إن أمراً كهذا لا يعرفه محمد ولا يفكر فيه، وجنود الرومان لديهم القوة والمنعة ورصيد لا ينفذ من الرجال والمؤن.

قالت زينب فى فرح غامر : أحق ما تقول؟

تلك آخر جولة نقوم بها ولا يصح أن نتردى فى الخطأ الذى  
تردى فيه بنو قريظة وبنو النضير وغطفان، غطفان ستأتى يا امرأة،  
ومكة أيضاً لن تتوانى عن نقض معاهدتها الجديدة عندما يجد الجد  
لشفى أحقادها وتأخذ بثأرها .

نظرت إلى السماء بوجه مشرق وعينين ضاحكتين،  
وهمست :

- يالها من رؤيا جميلة، الرومان، جنود بنى الأصفر،  
صناديد خير، أساد غطفان، ها ها . . ها . . لسوف يفر المسلمون  
أمام هؤلاء كالفران المدعورة .

واتسع فمها عن ابتسامة خبيثة وقالت :

- وكل ما أطلبه منك يا زوجى العزيز أن تختار لى واحدة من  
زوجات محمد ضمن سباياك، ولتكن عائشة «بنت أبى بكر» ها ها  
ها، أم المؤمنين، سيكون شيئاً رائعاً أن تقوم على خدمتى زوجة نبي  
لقد وعد كنانة بن الربيع زوجته «صفية» بأن يهديها غداة النصر  
رأس محمد، حسناً، لن تستمتع صفية بذلك غير وقت قصير، أما  
أنا فسيحلولى إذلال عائشة أبد الدهر، عندئذ يشفى غليلى، وتهداً  
روحى، ويموت شعور العجز القاتل الذى يعيث بأمنى وهنائى .

وظلت زينب تثرثر بينما استغرق زوجها فى تفكير عميق .

وأخذت تقول :

- إلى الآن لا أكاد أصدق ما يجرى؟ هؤلاء العرب أمرهم جد عجيب، لقد كانوا دائماً ضحايا القوضى والجهل والغرور، فيغامرون في حماقة، وقيمون المعارك لأتفه الأسباب لا يربطهم معنى كبير، ولا ينسقهم تنظيم محكم ويتغنون بأيامهم التافهة، آلاف يموتون من أجل ناقة، أو هجاء بيت من الشعر، أو من أجل عرض امرأة، ونحن نسخر ونحرض، ونجنى من وراء حماقاتهم الثمار اليانعة والمال والمجد والسلطان، ماذا جرى؟

لم أكن أتصور في يوم من الأيام أن يتوحد هؤلاء، وأن ينصاعوا للشرائع وتقاليد جديدة تنظم الزواج والإرث والعلاقات العامة، ويكون لهم مبادئ كبرى يتفانون في سبيلها، واليوم أرى محمداً وحوله طرازاً غريباً من الناس، لا غرور، لا قوضى لا تهور، ويفكرون ويخططون وينتصرون على تدابير اليهود، وذكائهم الخارق، إنني لا أكاد أرى تفسيراً لذلك، أستطيع أنت أن تشرح لي الأمر يا سلام بن مشكم؟

قال: هه - ماذا؟ - إنك في واد آخر.

- أعرف.. . أعدك بأن تكون عائشة ضمن سبائك.

وشردت بضع لحظات ثم قالت: عندي فكرة.

- ماذا؟

- لن توافق عليها.

اشرح لي الأمر أولاً.

- حسناً يا سلام.. إننى امرأة امرأة، حاقدة وأفكارى قد تبدو مغرقة فى الخيال، والحماسة أحياناً، - لكن - لن أخسر شيئاً إذا عرضت عليك خطتى، ماذا يقول الناس عنى لو فررت من زوجى، وغادرت خير خفية، وامتألت بالأراجيف والشائعات..

قال فى دهشة: ماذا؟

- صبراً يا سلام، سيكون لذلك دوى هائل، زوجة فارس خير وقائدها الهمام هربت إلى المدينة، وقصدت محمداً رسول الله لتعتنق الإسلام.

هتف مستغرباً: الإسلام؟

- أجل، لقد مال إليه قلبى، وهدانى الله، فتركت ورائى المال والولد، والزوج، والدنيا بأسرها، وانطلقت إلى الله إلى طريق الحق، إن حدثاً كهذا سوف يهز المدينة هزاً عنيفاً لسوف أدخل يثرب فى موكب رائع والتهليلات والتكبيرات تشق عنان السماء، ومحمد يبسم لى، ويدعولى بالتوفيق والسعادة ويتزوجنى.

توترت أعصاب سلام، وشحب وجهه، وانتفض واقفاً وهو يزمجر:

- بماذا تهذين يا بنت الحارث إنها دعاية سخيفة؟

وأخذت زينب تفهقه حتى كادت تستلقى على ظهرها من الضحك، وأخذت تقول وهى تحفف بللاً أصاب عينها من شدة الضحك: أتغار؟

- بل أخاف على عقلك من التلف، تارة تريد أن عاتشة ضمن السبايا، وتارة أخرى تريد أن تعتنقى الإسلام.

وبدا الجدل على وجهها، ثم قالت:

- ولسوف يحوطنى محمد وصحابته بالجلال والإكبار، إنهم يفرحون بمن أتى مسلماً أكثر من فرحهم بحيارة كنوز الدنيا، وأؤكد لك أن محمداً سوف يتزوجنى، فسأكون وحيدة مسكينة، مضحية بكل شيء، وقد يقتلنى اليهود، لابد أنه سيتزوجنى أو على الأقل يقربنى منه، وفى هذا الوقت أستطيع أن أدس له السم أو أجهز عليه بخنجرى.

زايله توتره وابتسم ورماها بنظرة متعالية، وتمتم:

- لسنا فى حاجة لهذا الشقاء كله، إن خير وحدها قادرة على سحق محمد وجنده، ليس هناك بشر معصوم من الهزيمة؟

الأنبياء أحياناً يهزمون بل ويُقتلون، القوة الماكرة تستطيع أن تغير وجه الأرض، استمعى إلىَّ جيداً، أنا لا أعرف شيئاً اسمه المسلمات وليس هناك قيم ثابتة، حتى فى ديننا، ولعل سر نجاحنا، أننا نتغير ونغير نصوص ديننا مع الزمن.

قالت فى ضيق:

لا أكاد أفهم شيئاً مما تقول، حسبتك ستطرب لفكرتى.

- فكرتك رائعة، لكن ليس هذا وقتها، أنسب وقت لها يوم أن تندحر قوانا، ونعجز عن هدم الكيان الإسلامى، عندئذ نتحول إلى

سوس،— أجل سوس ينخر في ذلك الكيان حتى يتقضى على أهله،—  
لن نستسلم أو نموت، وأماننا الأبد ممتد حتى نهاية الزمان، وما لا  
نحققه اليوم نحققه غداً.

زمرجت في حدة:

- لا أجد من يفهمنى، ما أتعسنى، لسوف أتصرف فى النهاية  
وحدى.

- لو فعلت شيئاً من ذلك دون موافقتى لسحقت رأسك هذه.  
ورماها بنظرة حادة مخيفة.

فتساقطت الدموع من عينيها وهى تقول:

- محمد أزال دولتنا، وقتل الأحبة من قومنا، وعرى نوايانا،  
وأفسد مخططاتنا، أهنك عار أبشع من هذا العار؟

قال سلام فى ضيق: هذا كلام ممل، أسمعته للمرة الألف،  
فلتتركى الرجال يقومون بواجبهم.

- دائماً تصغر من شأنى، وتسفّه من إرادتى.

- لأنّ حقدك يعميك عن التبصر والتأنى وإدراك الحقائق.

وفجأة صمتت، لقد وثب إلى ذهنها صورته.

واحد من العبيد فى منزل زوجها، هادىء، أسود السحنة  
يرمقها دائماً بنظرات صارمة قوية، يمتزج فيها الاشتهااء بالعنف  
والصمت الصاخب، إنها تخافه، وتفهمه أيضاً «فهد» أجل «فهد»

لماذا لا تتكرر قصة وحشى قاتل حمزة، وهند بنت عتبة بأى ثمن؟

- فهد، أيها التعس المسكين، لتذهب إلى البستان وتحضر لى بعض الفاكهة، النظرات القوية الصارمة تنبعث من عينيه، وعوده السمهرى ينتصب فى إباء وشمم يتنافى مع خضوع العبيد، وصمته المريب يثيرها، ويبعث الرجفة فى جسدها، ويحضر «فهد» الفاكهة، ويضعها أمامها فى صمت وينصرف..

- فهد، أيها الفتى الطيب، إنك جدير بكل إعزاز وتكريم، حسناً، فلتذهب وتستدعى لى تاجر الذهب، إننى أريد سواراً رائعاً.

وأخذت الإماء يتبادلن النظرات الحائرة، ماذا جرى لمولاتنا؟؟ إنها لا تدعو إلا فهداً، ولا تتحدث إلا عنه، تكيل له الشاء، لم يعد يبقى سوى أن تطلب منه أن يجهز لها حمامها وثيابها الحريرية.

- فهد، إنك وقعت فى أسر العبودية ظلاماً، ما أكثر العبيد الذين يفوقون السادة سمناً وعقلاً وهيبة!!

قالت زينب هذه الكلمات، وسرعان ما رقت نظرات «فهد»، وبدأ الخجل على وجهه، واغرورقت عيناه بالدموع، وطأطأ رأسه فى حزن، وهو يقول:

- أفسخرين منى يا مولاتى؟؟

- لو كنت أصنع أقدار الناس لجعلت منك سيداً يشار إليه بالبنان.



- لكنه قدرى يا مولاتى .
- صرخت فى حدة : أيها العاجز .
- رفع إليها عينين دهشتين وقال : وماذا أفعل؟؟
- ضحكت فى خلعة وقالت : تحلم بالحرية .
- الأحلام تزيدنى حزناً وتعاسة .
- فلتصنع لك عالماً من الخيال ، تصور نفسك سيداً مهاباً ، عش هذا الوهم ، أدمن التفكير فيه ، تصرف على أساسه .
- ضحك فى أسى وقال :
- لو نفذت ما تقولين لكنت أنت يا مولاتى أول من يشوى جسدى بالسياط ، ويحرقنى بالنار .
- قالت فى انفعال : - أنت إنسان يا فهد .
- لكن لم يكن لى فى الأمر حيلة ، حتى اسمى غيرتموه أكثر من مرة ، أنا لاشيء ، أنتم تحزنون من أجل ناقة نفقت ، أو بعبير ضل ، أو شاه أكلها ذئب ، أما أنا .
- أنت إنسان !! ألم تسمع؟؟
- نظر إلى وجهها المتلىء ، وعينيها الواسعتين القلقتين ، وشعرها الفاحم ، وفمها الدقيق الشهى ، وتمتم :
- الحقيقة التى غملاً عالمى هى أننى حرمت من نعيم الحياة

كله، الحرمان فظيع، فظيع، حتى مجرد التعبير عما فى قلبى لا  
أجرؤ على الجهر به، أتدركين ذلك؟؟ مستحيل، إنك لم تجربى هذا  
العناء القاسى .

قالت وشففتها ترتجف: تكلم، قل ما تشاء، أريد أن أعرف ما  
يعتمل فى قلبك .

- إنه الموت .

- أعلدك بشرفى .

- ألن تشى بى؟

- لقد وعدتك . . بشرفى .

ودار بنظراته فى جنبات الحجرة، ثم عاد وركّز نظراته القوية  
الصارمة على عينيها وقال فى هدوء والعرق يتفصد من جبينه الأسمر .

- إننى أحبك .

انتفضت، وتصنعت الدهشة، وأخذت تعض على شففتيها،  
وصرخت: ماذا؟؟

- كنت واثقاً من ذلك، السياط والنار، بل الموت، لأننى  
عبد، ولأنك زوجة سلام بن مشكم .

هدرت أيها المنحط، القذر .

- أجل، لو قالها أحد السادة لقوبلت بابتسامة، أو باكفهرار،  
ولا شىء غيرهما لكنها منى انحطاط .

- انصرف فوراً.

إنها النهاية، ما أشد غبائى، أكان ما حدث اختبار؟؟ ياله من اختبار مميت.

- انصرف أيها النذل.

- لكن الانصراف معناه التسليم بالموت، إننى قادم إليك، لسوف أقبل قدميك وحذاءك، بل وألثم التراب الذى تطأينه، وأذرف دموع الندم، لعلك ترحمين عبداً تعساً مثلى، وتبقين على حياتى.

وخطا نحوها فى خشوع، وكأنه يسير فى موكب جنائزى، وانحنى صوب قدميها، فأمسكت بساعده وسددت إليه نظرات شرهة، ثم تشبثت به، وضمته إليها فى جنون.

- «ماذا جرى يا مولاتى؟؟»

- الحب لا يعرف الحواجز، كنت أفهم نظراتك، لطالما عذبتنى، وذهلت حينما سمعتك تتحدث عن الحب، ذهلت وسعدت فى نفس الوقت، أحبتك واحتقرتك.

قال وجسده ينتفض كله: كيف؟؟

- حسيتك تتحدث عن الحرية.

- حبك فى قلبى أقوى وأعظم من كل شىء.

- لم تزل عبداً رائعاً، كلمات لم أسمعها من سلام بن مشكم

طول حياتي، كنت على استعداد لأن أهبه عمري لو قالها.

قال وقد تدلت ساقاه، واضطربت أنفاسه:

- أحياناً تبدو الحرية وكأنها الحب، وأحياناً هي المال، وأحياناً أخرى تبدو نوعاً من الاطمئنان النفسى الغريب، برغم القيود، أنا لا أفهم حقيقة ما هي الحرية، كل ما أفهمه عن الحرية هو أن أعبر عن أشواق ذاتي.

مرت بيدها الناعمة على لحيته الخشنة وقالت:

- أيها الأناني.. لكم أحبكم.

- لا أعرف كيف أتكلم.

- أنت هكذا شيء جميل.

وفجأة وبدون مقدمات قالت:

- أسمع عن وحشى بن حرب؟

- من وحشى هذا؟؟

- فتى من عبيد مكة، قتل حمزة عم الرسول ونال حريته ثمناً لبطلته.

- أوه، لقد سمعت عنه.

- لو أردت لكنت مثله.

- «سيدتي إننى أرغب عن مثل هذه الأمور».

صرخت محتدة، إليك عنى، إننى أكره الجبناء.

- ماذا أفعل؟؟
- يجب أن تكون حراً.
- كيف؟؟
- بأى ثمن.
- حبي الصامت العاجز لك شلّ تفكيرى عن كل شىء، لم أكن أفكر إلا فيك، النظرات التى اختلسها إليك، كانت زاد أحلامى، وشفاء لجذب روحى، لم يكن لدى وقت للتفكير فى شىء آخر.
- أريد رجلاً.
- وأنا؟؟
- رجلاً متمرداً حراً.. واسع الآمال.
- إننى رهن مشيئتك يا مولاتى.
- ومرت أيام قلائل، عاشها فهد وكأنه يتسامى فى دنيا سحرية مليئة بالخضرة والزهور والينابيع الدفافة، وزينب تعطيه بمقدار، لا تتركه يظماً حتى يقتله الظماً، ولا تدعه ينهل حتى يرتوى والعجيب فى الأمر أن زينب قد طرأ عليها بعض التغيير، لم تعد تأنس كثيراً لزوجها، بل إن أسعد أوقاتنا هى الأوقات التى يقضيها خارج البيت، ولم تعد عيناها ترى من العبيد والإماء إلا فهداً، وذهلت زينب لهذه التغيرات، أيمكن أن تحب عبداً ذليلاً

حقيراً كهذا!! مستحيل، لكن الحقيقة تصرخ في تحد، إنها تسعد لوجوده، وتبش لمقدمه، وتحلم أحلاماً في غاية الحماسة والانحراف.. أية كارثة حلت؟؟

وذات مساء قالت له: أي فهد العزيز، إن سلام بن مشكم قد سافر اليوم إلى مكان بعيد، لعله قصد أرض غطفان، قد يعود بعد خمسة أيام أو أكثر، وفي بستاننا الجميل يافهد عش رائع، بعيد عن الأنظار، يكفي رجلاً وامرأة، وعندما يغيب الهلال ستجدني هناك أنا أكره الانتظار، وحذار أن تهمس لأحد بشيء وإلا فقدت حياتك..

مرت ليلة البستان..

آه.. كل شيء يوشك أن يتهدم، يا ليل العريضة المثير، كل شيء تحركه الرغبات، جميعهم جياع، الويل لي لو عرف بن مشكم الحقيقة، حسناً إنني أبيع نفسي للشيطان لكي أظفر بمحمد، وخيل إليها أن فقهة ساخرة تنطلق من مكان بعيد، ماذا؟؟

أنا لا أكذب أو أخدع نفسي، لم أسلم نفسي للعبد إلا لغاية كبرى، وتلفتت حولها في توجس، لا أحد، أعترف كنت أشتهيه لقد ضربت عصفورين بحجر واحد، أطفأت ظمأى، ودبرت الجريمة الكبرى التي ستهز العرب جميعاً، لقد اتفقت مع فهد أن يذهب ليغتال محمداً، ثم يعود، ونهبه الحرية، ونشترك في قتل سلام زوجي، وبعد ذلك نهرب ونتزوج، لن أنفذ الشطر الثاني من

الاتفاق؟ لن أقتل زوجي آه.. وقضيت مع الداعر بن الداعرة فى أحضان البستان ليلة لا تنسى.. وامصيتى!! سلمت نفسى له، وأسلم نفسه لى، وماذا فى ذلك!! خير كلها تحترق بالإثم والنفاق والأكاذيب، الخطايا تهوم فوق البساتين والدور والطرفات، الحياة رغبات.. كل ما نملك فى خدمة الرغبات المتأججة فى الصدور.

وارتمت زينب بنت الحارث على فراشها باكية، وأخذت تشهق بصوت مسموع، وعندما تجمع حولها من بالبيت فى ذعر قالت:

- لا أريد أن أرى أحداً.

قالت فتاة من الإمام: إن مولاي قد عاد..

رفعت رأسها فى دهشة و الدموع لم تنزل فى عينيها:

- كيف!!

قطع رحلته.. بلغته أنباء عن حشد كبير للمسلمين غير معلوم الوجه.

ودارت بنظراتها هنا وهناك.. فرأت فهذا ينزوى فى ركن بعيد فصاحت فى وقاحة وهى تحفف دموعها: فهد.

- مولاتى.

- أخبر مولاك بأنى أريده على عجل.

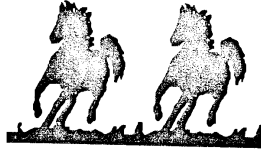
فهرول مرتجف الأوصال شاحب الوجه، ورأسه يدور، لا

يكاد يرى شيئاً أمامه، واصطدم بقدم في الطريق، وعندما فتح عينيه  
جيداً صاح في رعب:

- مولاي، مولاتي تريدك.

قال سلام في هدوء: ماذا جرى!!

ومضى في طريقه ثابت الخطى.





### الفصل السابع

قال سلام بن مشكم لأصحابه من رجالات خير:

- أيها الرجال، إن الحرب واقعة بيننا وبين محمد لا محالة، ولو أثر محمد السلم وأبدى رغبة في المهادنة فلن نقبل، إن الأمور واضحة لى تمام الوضوح، فنحن المعقل الأخير لبنى إسرائيل فى هذه الجزيرة، ومحمد يدرك أن عداونا له أشد من عدااء قريش، ونحن أهل كتاب لن نفرط فيه مهما كان الأمر، كلانا يتحفظ للآخر، سيبطش محمد بنا إن لم نبطش به، وأرى أن نخرج إلى «يثرب» ومعنا غطفان ويهود وادى القرى ويهود فذك وثيماء، سيكون النصر لنا، لقد علمت العرب أننا أقوى شأنًا وبأسًا، وأكثر مالا وعدة وعدداً.

وكان بين الجالسين يهودى يدعى الحجاج بن علاط، وهو تاجر ناجح، له تجارات واسعة فى أنحاء الجزيرة وخاصة مكة قال الحجاج:

- إننى أخالفك الرأى، وليس وراء الحرب إلا الخراب واليتم والثارات التى لا تموت، ومحمد لم يغدر فى عهد من عهوده قط، وأرى أن نعقد معه معاهدة صلح لا ننقضها ما حيينا، فننال السلم، وننعم بالرخاء، ونخلى بينه وبين العرب، فإن أصابوه بلغك ما نصبوا إليه وإن أصابهم لم نخسر شيئاً.

قال كنانة بن الربيع وكان مشايحاً لسلام بن مشكم :

- السؤال الأول الذى يجب أن نطرحه هو : من الأقوى ؟

نحن أم محمد؟ فإن كان محمد أقوى شكيمة واستعداداً منا عقدنا معه الاتفاق، حتى نحين الفرصة للقضاء عليه وإن كنا الأقوى، انطلقنا إلى يثرب دون إبطاء وحطمنا سلطانه ودينه، وأعتقد أن القوة لنا، هل فيكم من يخالفنى الرأى؟

قال سلام : أنا معك .

وقال الحجاج بن علاط :

- إن عوامل أخرى تتدخل فى الحروب، هل نسيتم ما حدث يوم الأحزاب، كانت القوة لنا، لكن جدت أمور وعوامل أخرى لم تكن فى الحسبان، إن مقياس القوة ليست بعدد الرجال، هناك إرادة الله، وإرادة الرجال .

قال سلام : إرادة رجالنا أقوى، وإرادة الله فى صفنا .

- الله فى صفنا؟

- أجل يا حجاج، وإلا كنت ضعيف الإيمان، زائف العقيدة .

- كل طرف يا سلام يعتقد أنه على حق .

- لا يهمنى الآخرون، لو لم أؤمن أعمق الإيمان بدينى لاتبعت محمداً، وكانت غالبية الآراء فى صف سلام بن مشكم، اتفقوا على أن يعدوا العدة لهجوم مفاجئ ساحق على «يثرب» وتبادلا الوعود

والمواثيق مع غطفان، أما الاستعانة بالرومان فلم يكن الوقت كافياً لتنفيذها، فالانتظار معناه تعريض «خير» لخطر الغزو، وعندما عاد سلام إلى زوجته، قال وهو يخلع عنه ملابسه:

- لقد جد الجد، وسنذهب لضرب محمد في الصميم.

قالت في طرب:

- وافرحتاه!، هذا يوم المنى، يوم الثأر.

ثم أقبلت نحوه، وأمسكت بيده وقبّلتها، واحتضنته في حب قائلة:

- لكن حذار أن تضحي بنفسك يا سلام، الحياة بدونك عذاب أبدى.

ابتسم في غرور: سأعود إليك منتصراً، ومعى عشرة من السبايا بينهن عائشة.

قالت وهي تقهقه في شماته: أم المؤمنين..

- أجل، ونثار لأحزان المساكين من بنى قينقاع والنضير وقریظة.

وشردت بضع لحظات، وتمتعت في انفعال:

- أتعبنى يا سلام؟

التفت إليها في دهشة وقال:

- ماذا تقولين؟ إن أمرك لجد عجيب!، أو تشكين في ذلك؟

- لا، ولكنى أريد أن أسمع كلمة الحب تخرج من بين شفثيك، ستكون وساماً أعلقه على قلبي، وأتيه به فخراً بين نساء خبير.

قال وهو يلقي بجسده المتعب فوق حشية بجواره:

- الحب ليس كلمة تقال.

- فماذا يكون إذن؟

- إنه شيء تحسّن به ولا تسمعيه.

تدركينه في اللمسات والنظرات والتصرفات، ألم تفهمي ذلك طوال السنين الفائتة؟

قالت في شبه غيبوبة سكرى:

- لكن الكلمات حلوة.. إنها تلامس الأذن فتتهز كيانه المرأة هزاً.. لعلها أتفه أدوات التعبير في نظرك.. لكنى أراها أروع شيء..

قهقهه في سخرية وقال: - إن فيك قليلاً من جنون وسذاجة. ثم استدار إليها مرة أخرى وقال:

- لم هذا السؤال في هذا الوقت بالذات؟

- لا أدري.. ربما لأنها أوقات عصبية، وأنا أخاف عليك من الحرب.. إنها غادرة.

- أوه.. فهمت.. شيء أشبه ما يكون بالوداع.. طيبى نفساً

يازوجتى .. لن أموت - سأعود إليك وعلى جبينى غار النصر ..  
أنا القائد .. وعندما أنظر إلى حصون خيبر ونخيلها وحدائقها  
الخضراء .. وعزيمة الرجال الأشداء وإمكانياتهم الضخمة، أؤمن  
بأن ملكنا لن يزول.

خيّل إليه آنذاك أنها ستندفع إليه، وتضمه إلى صدرها،  
وتتشبث به، وتغرق وجهه بالقبلات، لكنها ظلت حزينة صامتة،  
فقال فى دهشة: - ماذا بك؟

- لا شىء.

- إننى لا أفهمك .. هل أصابك سوء؟ أنت تخفين شيئاً  
عنى.

قالت فى ذعر: - ماذا؟ لا شىء.

- يبدو أن إحدى العرافات قد تنبأت لك بقتلى .. لكن طيبى  
نفساً إننى أقوى من النبوءات والزعازع ..

وسادت فترة صمت قالت زينب بعدها:

- إننى أعيش المعركة بكل كيانى.

ضحك سلام قائلاً:

- لدرجة أنك فكرت فى اعتناق الإسلام، والذهاب إلى  
محمد لدس السم له.

- لكنك ترفض ..

- بالتأكيد..
- وأنا لم أياس.
- قال فى اهتمام:
- كيف؟ يخيّل إلى أنّك اتبويت تنفيذ ما تفكرين فيه، ولعل هذا هو سبب حديثك المفاجيء عن الحب.. وربما فكرت فى اكتشاف أمر وتعرض نفسك للقتل.. الآن فهمت..
- قالت فى هدوء وقد انتضت رأسها:
- لا..
- ماذا إذن؟
- لقد غيرت خطتى.. لسوف أرسل واحداً من العبيد لقتل محمد وسنهبه الحرية إذا ذهب ونفذ ما نريد.. حكاية شبيهة بحكاية وحشى بن حرب قاتل حمزة.. فهل توافق على ذلك؟
- هز كتفيه فى شيء من الاشمئزاز:
- إنها لفكرة رائعة لو تحقق لها النجاح.. لكننى لا أثق فى العبيد.. قالت: كيف؟
- قال: إنهم ضعاف النفوس، تمتلىء قلوبهم بالحق، لا يستسيغون التضحية الكبرى من أجل سادتهم..
- بل من أجل حريتهم ياسلام..
- ماذا لو ذهب ذلك العبد، وعاش إلى جوار محمد، وسحره

حلو حديثه، ومعسول ومودود، وابتسامته النفاذة؟ إن محمداً ساحر، ولا تعجبى إذا جاءك الأنبياء عن خيانة العبد الذليل، واعتناقه الإسلام، وتطوعه بإفشاء السر لمحمد . .

قالت فى ضيق . .

- أنت تهول فى الأمر . . بعض هؤلاء العبيد، قد درجوا على الوفاء والاخلاص النادرين، ربما يكون بعضهم أشد وفاء من الزوجة لزوجها . . أنا أعرف ذلك . .

- ومن سيقوم بذلك؟

- فهد .

فكر لحظة، وضيق عينيه، وقرب حاجبيه وقال:

- ذلك الذنب الصامت . . إبنى لا أحبه . . حسناً ليذهب إلى الجحيم . .

- لا تحبه؟ كيف؟ إنه لم يخطئ قط . . ولم يعص لك أولى أمراً . . وقد فاتحته فى الأمر . .

- حقاً؟ . .

- أجل . . وأغدقت عليه من برى، ووعدته بالحرية . . والفتاة التى يختارها للزواج، وعدداً من الإبل والأغنام والنخيل . . قال دون اكتراث:

- ليكن لك ذلك . . حتى لو غدر فلن يكون سوى تابع تافه

لمحمد، يمضى فى ذيل الموكب، منتشياً بعطر الكلمات المعسولة التى ينثرها محمد وسط الجميع . . ولكن لا تنس أن محمداً سيهبه الحرية أيضاً . . ومضافاً إليها الجنة، تلك التى يهرع إليها المسلمون وسط النار والدم والسيوف دون خوف . .

قالت فى إصرار:

- ونحن سنهبه الجنة أيضاً . . جنة محمد بعيدة . . دونها الموت والحقب الطويلة والغيب المجهول . . والبشر يريدون جنة قريبة عاجلة . . يريدون المال والجاه والمتعة . . جنة الفقراء .

قال وهو يتشاءب: - حسناً . إفعلى ما شئت .

وفى الصباح، إنصرف سلام إلى وجهاء قومه ليعيدوا العدة، ويكملوا الحشد للسير إلى المعركة المرتقبة، وخرجت زينب بنت الحارث من حجرة نومها فوجدت فهد يقف مضطرب النظرات، مرتعد الفرائص، اقتربت منه وقالت:

- ماذا بك؟

تلقت حوالبه فى ذعر وقال: - أحد العبيد قال كلمة خبيثة . .

- ماذا؟

- فهمت أنه يعرف شيئاً عن علاقتنا الأثمة .

لو عرف سيدى لمزقنى إرباً . . إرباً

قهقهت فى توتر وقالت:



- ولو ضعني في زيت يغلي، وجلس يتسلى بمنظري البشع . .
- ما الحل؟
- هذا أمر تافه يافهد . . أرسل ذلك العبد إلى فوراً . . لا مجال للإبطاء الوقت ضيق . .
- وأقبل العبد الذي كشف السر متعثراً في خطاه، سددت زينب إليه نظرات قوية تبرق بريقاً مخيفاً، فأخذ جسده ينتفض من الرعب، قالت:
- أراك مضطرباً . . إجلس عند قدمي هاتين . . إن ساقاي تؤلمانني أريدك أن تدلكهما .
- ألقى العبد، والعرق يتصبب منه، ويداه ترتجفان . .
- أيها المسكين . . خذ هذا الماء البارد لعله يخفف من اضطرابك . . وشرب العبد الماء دفعة واحدة . .
- حسن أيها التعس . . إنك تكثر من الكلام الفارغ دون فائدة . . أنت لا تفهم شيئاً عن الحياة . . ليكن . . فلتذهب الآن إلى الحديقة ولتحضر لي بعض الفواكه، ستجدها لدى البستاني، وقف الرجل مبهور الأنفاس، فصرخت به في حدة:
- إذهب ولا تبطئ . . .
- وما أن إنصرف حتى أطلقت ضحكة شيطانية عالية . .
- وبعد لحظات جاء فهد شاحباً وقال متلعثماً .

- هل توعدته حتى لا يفتح فمه؟

قالت وهي ترمقه بنظرات ولهي .

- لسوف يغلق فمه إلى الأبد .

كيف؟

- لقد أرسلته إلى البستاني ليحضر لي بعض الفواكه على

عجل .. لكنه لن يعود ..

- لن يعود؟

- أجل يافهد الحبيب .. من أجلك أنت لأنك أمتع رجل في

الوجود، ولن تستطيع قوة أن تفترق بيني وبينك ..

وتنهدت في ارتياح وقالت :

- لقد سقيته السم، وعندما يصل إلى البستان ستكون أعضاؤه

قد تراخت .. وسيستسلم لنوم طويل .. أبدى - مسكين لسوف

يموت دون أن يرى هزيمة محمد . الغريب أنه سيموت بنفس السم

الذي أعدده لمحمد، إنها منزلة لم يكن يحلم بها ذلك المغرور،

لكنني دائماً أتصدق على هؤلاء الأغبياء، حتى بالميتة الحسنة .

ثم إلتفتت إلى فهد المذهول الذي دارت به الأرض وصرخت :

- وأنت ..

- ماذا؟

- لسوف تنتظرني هذا المساء، هناك في نفس المكان ..

تصور . . حاول سلام بالأمس أن ينال منى حقه كزوج لكنى تعللت وأبيت . . أصبح مذاق سلام كالعلقم إنه شئ مقيت . .

لا أدري كيف . . هناك فى نفس المكان ، ولا تتأخر لحظة حتى لو اشتعلت الحرب فجأة وهناك ستحوم من حولنا روح العبد الأبق الأبله . . ولن يستطيع أن يخترق حاجز الموت . . سيشقى بالغيرة والحرمان حياً وميتاً . . والآن انصرف .

قال وقد طأطأ رأسه :- ولكن سيدى هنا!

- لا شأن لك . . إننى أعرف كيف أدبر شأنى ، ومولاك غارق فى الغرور حتى أذنيه ، إنه لا يتصور أنه كائن ما كان لا يجسر على العبث بشرفه . . إنه عظيم لا يهتم إلا بالعظماء ، أما أنا وأنت فأتفه من التفاهة . . العبيد والنساء هنا لا مكان لهما سوى الحضيض لكن ألسنتى معى فى أنه حضيض رائع . . انصرف ، أيها الأحمق .

قال وهو يقترب من الباب بظهره :

- أمر مولاتى .



### الفصل الثامن

أَلَمْ بِسَلامِ شَيْءٍ غَيْرِ قَلِيلٍ مِنَ الْحَقِّ حِينَما عَلِمَ بِمَوْتِ أَحَدٍ عِيْدِهِ، وَأَخَذَ يَتَصَرَّفُ فِي ضَبِيقٍ وَتَوْتَرٍ، بَيْنَما قَالَتْ زَيْنَبُ زَوْجَهُ: «ماذا جَرى؟ إِنْ الأَمْرَ لا يَعدُو أَنْ يَكُونَ شاةً نَفَقَتْ، فلا تَشْغَلْ نَفْسَكَ بِذلِكَ كَثيراً».

قال سلام: «أَعْرِفُ أَنَّهُ لا قِيَمَةَ لَهُ، والخِسارةُ فِيهِ نَافِيةٌ، لَكن مِيتَتُهُ عَجيبةٌ ومُفاجِئةٌ، لَقَدْ سَقَطَ فِي الطَّرِيقِ دُونَ مَقَدِماتٍ مِنْ مَرَضٍ، وَتَقِيًّا.

قالت:- وماذا فِي ذلِكَ؟ المَوْتُ لا مَوْعَدَ لَهُ، رَجا تَكُونُ قَدْ لَدَغَتْهُ حَيَّةٌ فِي الطَّرِيقِ، فَلَفِظَ أَنْفاسَهُ فِي ثَوانٍ.

- وَلِمَ لا يَكُونُ فِي الأَمْرِ سِرٌّ غامِضٌ.

- هَتَفَتْ فِي خَوْفٍ:

- سِرٌّ؟ مِثْلُ هَؤُلاءِ المَساكِينِ لَيسَ وَراءَهُمُ أسرارٌ.

- أَنّا شَخْصِيًّا لا أَعْرِفُ شَيْئاً ذا قِيَمَةٍ عَنِ هَذا العَبْدِ. لَكنّي أَحاوِلُ أَنْ أَجْمَعَ بَعْضَ المَعلُوماتِ.

قالت مُحْتَدَةً:- هَوْنٌ عَلَيكَ، وَلنَشْغَلْ بِكَبَرِيَّاتِ الأُمُورِ.

هَزَّ كَتِفِيهِ فِي أَسْفٍ وَقَالَ:

- أَلّا يَكُونُ ذلِكَ مَقَدِمَةً وَبَاءً؟ لَكن أَلّا يَخْرُجُ الوَباءُ إِلا مِنْ

بيتي؟ معنى ذلك - إن صح التخمين - إننا قد نموت في أية لحظة . .  
أليس هذا مزعجاً؟

هزت رأسها قائلة :

- آه فهمت، أنت لا تفكر فيه . . بقدر ما تفكر في مستقبلنا  
نحن . . أؤكد لك أن مصرعه لا يعدو أن يكون صدفة من جراء  
لدغة سامة . هذا هو الأرجح . . لدغته حية سامة .

ابتسمت خفية، وتمتمت وهي تلتصق به :

- وأى حية!

فأردف سلام بن مشكم :

- حسناً . . لسوف أنصرف إلى كنانة بن الربيع . . إن كابوساً  
غامضاً يضغط على قلبي أريد أن أتخفف من ذلك الوهم .

وسط الرجال والأحداث ينسى الإنسان أوهامه الصغيرة .

قالت في خبث : - وزوجتك؟ ألا تخفف عنك شيئاً كهذا؟

- إن بك وبى من الفتور في هذه الأيام ما لا يمكن إنكاره .

- التفكير في كبريات الأمور يوجب القلق .

وما أن انصرف عنها، حتى انقلبت سحنتها، واكتست نظراتها  
ببريق حائق مستمر، كان جسدها ينتفض من الغيظ، ولا تكف عن  
الحركة القلقة، تعبت بأناملها، وتجذب خصلات من شعرها  
وتلامس عنقها ثم تضرب على فخذه، ولا تقف إلا لتجلس، ولا

تكاد تجلس حتى تهتم بالوقوف، حتى لكأن في حشيتها أشواك تدمى، وتمتعت في غيظ قاتل: - ابن الدنيئة لم يأت بالأمس. جلست أنتظره في البستان، بين الصمت والظلام والخوف والرغبة للثقة، لكنه لم يأت ها ها ها . . ماذا جرى للدنيا؟ أنا أنتظره، وأتحرق لرؤياه فلا يأتي؟ كيف؟ ألا يعرف من أنا؟ إنني قادرة على أن أسوقه سوقاً بالسوط، وأترع من دمه القذر.

وصرخت كمجنونة: - فهد . . فهد، إلى به فوراً.

ودارت بها الأرض، أشعل الحقد وخيبة الأمل في جسدها ناراً من نوع غريب، أخذت يداها ترتجفان، وفتحت عينيها فجأة فوجدته أمامها، هدرت: - لماذا لم تأت بالأمس؟

- لقد خفت . .

- يا ابن الثيمة، وكيف يخاف العبيد؟ عندما أمرك لا يصح أن تفكر في شيء آخر غير الطاعة.

- لكنني أخاف سيدي . . لا أستطيع أن أرفع عيني إلى وجهه، يخيل إليّ في بعض الأوقات أنه قادر على أن يقرأ كل ما يعتمل في نفسي، بل يبدو لي أنه على مقدرة كبرى في قراءة الغيب، أفرع من نومي على صوته القوي المخيف يهتف بي: أيها الخائن الجبان.

فقهقهت في جنون، وهبت واقفة، واقتربت منه وهي ترمجر

- أنا أقوى من سيديك.

- إنك تزيدني خوفاً.

- اللعنة عليك وعلى أفكارك.. القوة ليست الشوارب واللحي والسيوف والأصوات الخشنة أيها الغبي.
- أمر مولاي.
- لو لم تحضر هذا المساء، فلن تطلع عليك نور شمس الغد.
- قال وهو ينتفض:
- أحبك بكل ما فيك من قسوة ورعود وجنون.
- قهقهت في رضى:

- أنت تجيد اختيار الكلمات، ولا تظن أن وقاحتك تؤلمنى إنها تثيرنى أكثر وأكثر، سنحتفل الليلة برحيلك غداً إلى محمد يجب أن أهبك كل ما تريده منى.. سيكون ذلك هو الزاد فى رحلتك الطويلة إلى يثرب.. إننى أعرف كيف أشحن قلوب الرجال الأشداء بالكرامة والبأس.. لسوف تجد متعة عظيمة وأنت تقضى على حياة أعظم وأخطر رجل فى الجزيرة فى تاريخها الطويل.. وعظائم الأمور ليس لها إلا عظماء الرجال.. أنت عظيم برغم سواد وجهك.. ووضاعة مركزك، وبعد أيام قلائل سيتغير كل هذا. ستصبح الفارس المعلم الذى يشار إليه بالبنان فى طول الجزيرة وعرضها.

- وأخذت تصب فى أذنيه كلمات كثيرة متلاحقة، لم تكن تعطيه فرصة لاستيعاب الكلمات والتفكير فيها، أخذت تسقيه - على الرغم منه - كل ما تريد من أفكار وأوهام، أصبحت لها القدرة على تحريك

جسده وفكره، وإثارة روحه، استسلم لهما تمام الاستسلام، لم يعد في مقدوره سوى أن يصدق ويطيع. ملأت عالمه كله، يقطنته ومنامه، أليست زينب بنت الحارث، زوجة سلام بن مشكم؟ أهو في حلم أم حقيقة؟ استرخت في جلستها وهي تقول:

- لسوف يقول الناس إن زينب بنت الحارث قد أنقذت اليهود من قدرهم المحتوم، وكتبت لهم المجد، بل وحررت العرب من الرعب الذي بذره محمد في قلوبهم.

ثم التفتت إلى فهد قائلة:

- إذهب وأعد نفسك لليلة نادرة المثال.

ثم هتفت به أن «قف» أقبلت نحوه قائلة:

- احبارنا، ورجال الحرب في خير، الجميع عجزوا... أخذوا يعقدون الاجتماعات ويتصلون بكسرى وقيصر وغطفان وقريش... اتعبوا أنفسهم، لم يقتنعوا في يوم من الأيام أن امرأة مثلى قادرة على أن توفر عليهم هذا الجهد كله.

قال فهد فجأة وكأنه يصفعها:

- يقولون أن محمداً قادراً على أن يشم رائحة التآمر... إنه له فراسة في الرجل لا تخيب.

قهقهت في حلق: - لن تستطيع قتل محمد إلا إذا قتلت الوهم الذي يعيش في رأسك.

وابتلعت ريقها، ثم عادت تقول: - هل رأيته!!



- لا..

- الناس يصنعون الخرافات والأكاذيب.. ثم يصدقونها..  
محمدرجل كسائر الناس، أوتي قدراً من الذكاء والحنكة.. لكن  
الذكاء والحنكة لم يعصما أحداً من القدر.. تلك هي القضية  
ببساطة.. اتفهمني!!

- أليس نبياً!!

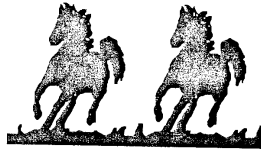
- لو كان كذلك لما كان هناك ضرورة لهذا العناء.. النبي لا  
يولد إلا في بني إسرائيل، أو على الأقل يؤمن بما يؤمن به بنو  
إسرائيل.. لكن محمداً سفته أحلام اليهود والنصارى على  
السواء.. الحق الكامل عنده وحده.. أنظر لو كان نبياً لما ظل هذه  
السنوات الطوال يكافح عن حياته وحياته من معه.. الله قادر على  
أن يهبه النصر والتفوق الكامل في لحظة.. هذه أمور لا دخل لك  
فيها.. يكفي ما أقوله لك.. وسيزداد إيمانك بما أقل عندما تراه قد  
سقط بين يديك.. دع هذا التفكير.. إنك مقدم على عمل كبير،  
وفي مثل هذه الأمور لا يصح أن يخالjk أدنى شك، أو تعتورك  
الهواجس والظنون.. كثرة التفكير والشكوك مدعاة للفشل.. لن  
تأخذ بيدك إلى حقيقة، بل ستجرك إلى الهزيمة والضياع.. كن  
حاسماً وانطلق، واستحق كل نوازع التردد.. وحشى بن حرب  
فعل ذلك.. إنه الآن سيد من سادات مكة.. اسمه يتردد في آفاق  
الجزيرة كلها.. أتفهمني؟؟ الليلة سيكون لقاءنا حافلاً بكل متعة

رائعة . . أيها المحروم طول حياتك . . إننى أفتح أمامك عالماً بهيجاً  
 ما كنت لتجد الطريق إليه طول حياتك لم أنف منك لأنك عبد . .  
 رأيت فيك إباء السادة وكبرياءهم . . فلا تحن إلى ماضيك التعس . .  
 كن سيداً . . وسر في الطريق، لا تنتظر أن أحداً يستطيع أن ينهض  
 بك . . أنت وحدك القادر على صنع مستقبلك ومركزك . . وليلتنا  
 هذه ستكون ليلة وداع، لأنك مسافر غداً . . وسلام بن مشكم  
 يعرف ذلك . . أنت الآن أعز لديه من كنانة بن الربيع . . هذه فرصة  
 العمر . . وليلتنا هذه أروع ما فى الزمان . . الشوق والوداع وأحضان  
 امرأة متمرسة فى فنون الحب والسياسة . .  
 دارت رأسه . . زاغت نظراته . .

شعر بضجيج هائل يشحن الوجود .

- يا إلهى . . إن رأسى يكاد ينفجر يا مولاتى . .

- أيها المسكين إنك فى حاجة إلى بعض الراحة . . الآن  
 تستطيع أن تذهب . .



### الفصل التاسع

- دعنى أذهب إليه ، وأغرقه بالوصايا وأمنيه بالأمنيات . . هذا ما قالته زينب بنت الحارث لزوجها قبيل الفجر ، فرد عليها سلام بن مشكم دون اكتراث :
- حسناً إذهبي إليه . . لا تكثرى من النصائح . . إن كثرة الكلام ينسى بعضه بعضاً .
- لو كان حقاً مؤمناً بما يفعل ، فسيقضى ليله ونهاره يفكر ويدبر ، أما إذا كان غير جاد فلن تغنى نصائحك شيئاً . .
- وخرجت ، وما أن التقت بفهد منفردة حتى بادرتة قائلة :
- هل أعددت كل شيء؟؟
- قال فى انفعال واقتضاب - أجل . .
- أنت تعرف . . هذا بداية تاريخ مجيد ، وحياة جديدة . .
- أدرك ذلك . . وأعرف أنها مهمة محفوفة بالمخاطر . .
- لن أخدعك . . إنها كذلك ، لكن تحسس الطريق ، الحذر الممزوج بالخزم والشجاعة تجعل من الأمر بسيطاً غاية البساطة .
- وسددت إليه نظرات ثاقبة وهى تقول :
- إن قاتل محمد ستطبق شهرته الآفاق . .

- المهم أن أعود إليك سالماً .

- إنى أحرص عليك منك . . تعرف كم أحبك . . ما أحببت مخلوقاً قط مثلك . . قد تتسائل : إذا كنت تحببني فلم تقحميني في هذه المخاطر؟؟ السبب بسيط وهو أنى أريدك بطلاً . . أريدك فى الصورة المثلى لرجل أحلامى . . وأنا عريضة الجسد والفكر والشعور تلك حقيقة . . لا أرضى بغير قتل محمد . . إن ذلك صداق حينا الكبير لسوف يكون حينا قصيدة عصماء يترنم بها العرب فى البوادي والحضر .

واقتربت منه ، وتلاصق جسداهما ، وسرت بأناملها اللدنة على عنقه الطويل ، وشعره وبروزات وجهه ، ثم ضمته إلى صدرها فى عنف . .

- لو لم تعد إلى سالماً لقدذت بنفسى من فوق الجبل لا يهمنى قتل محمد وحده . . بل لابد أن تنجو أنت الآخر من أى خطر . . كلا الأمرين بنفس الدرجة من الأهمية .

قال فى ارتجاف :

- وإذا فشلت وعدت بخفى حنين؟

- ان حبيب قلبى لن يفعل ذلك . . حى لك سيحملك على أجنحة النصر الباهر . . إننى واثقة مما أقول . لكن تأكد أن حبى لن يتأثر بأية أحداث طارئة ، إنه فوق النزوات القدرية . . ثم عادت تقول :

- فلتعض .. وسيصحبك خادم عجوز .. أنت منذ الآن سيد .. وحذار أن تكشف عن نواياك لأحد .. لا تسقط بلا ثمن .. الكتمان نصف النجاح .. والله يرعاك . المجد يا فهد لا تصنعه الصدفة .. إنه جد وعرق وتضحيات .. والذين يفكرون كثيراً ويترددون ، أو يحاولون أن يقيسوا تصرفاتهم بالمقاييس الخلقية العتيقة لا ينجحون .. كن قوياً جسوراً فتنتصر ، وتبعث الرعب في قلب الأعداء .. أريد رجلاً حراً شجاعاً ، لا أريد عبداً خنوعاً ذا نقائص .. لقد وهبتك أعز ما أملك ، فلتهبنى بعض ما تملك .. والحب عطاء ..

جری صوب راحلته ، وهی ترمقه عبر العتمة بعينين تتألقان بانفعلات خبيثة .. ومضى كالمغموم في الطريق الذي رسم له .. في نفس الوقت .. كان كنانة بن الربيع في بيته ثائراً متوعداً ، وزوجه صفية بنت حبي بن أخطب تقف قبالة صامته شاحبة الوجه ..

وقال كنانة ووجهه محتقناً - إننى على استعداد لأن أدفع كل ما أملك كي أعرف ما يعتمل في نفسك .

- إنك يا كنانة تحمل الأمور فوق طبيعتها .. لا شيء هناك سوى ذلك الحزن الذي يعتصر فؤادي .

- وكيف أصدقك؟؟ إنك زوجة وترفضين أن تمنحي زوجك بعض حقوقه .. لقد مللت الصبر .

ثم قال فى ثورة:

- «هل هناك رجل آخر؟؟ أقسم لو صرحت لى بحقيقة الأمر لارتاح قلبى». . . هى تعلم أنه يكذب، لو كان هناك رجل آخر، وتأكد له ذلك لحطم جمجمتها، وعادت إلى خيالها تلك الرؤيا الغريبة. . . ذلك القمر القادم من يثرب. . . والذى شق السماء والسحب والظلام وأشرق فى حجرها. . .

قالت فى شرود: - محمداً!!

وضح بالضحك المتوتر، وهذر:

- محمد هو الذى يحول بينى وبينك؟؟ كيف؟؟

أفاقت لنفسها، وارتبكت ولم تدر ما تقول، لكنه، عاجلها قائلاً:

- تقصدين أنه تسبب فى قتل أبيك، وجلب لك الأحران!! حسناً. . . إننا نعد أنفسنا لحربة فى الأيام القليلة القادمة كما تعلمين. . . وسيكون ثأر أبيك عنيفاً رهيباً. . . وسألقي تحت قدميك برأسه. . .

ونظر إلى وجهها، لم يشرق بالفرحة كما توهم، ولم تومض فى عينيها الحزيتين ومضات الشراسة وشهوة الانتقام، إنها لم تزل جامدة شاردة تهيم فى عالم غامض يزيد «كنانة» حنقاً وثورة. وعبر صمتها الممتد أخذت تقول:

- لماذا لا تعجلون بالحرب؟؟ الظلام يثقل على القلوب،  
والتوتر يرجف القلوب والعقول، هذه حياة لا تطاق.. إما الموت  
أو الحياة.. هذا العذاب ألعن من الموت، لقد رفضتم إبرام اتفاق  
سلام مع محمد فماذا بقي؟؟ لقد فقدت الحسم منذ زمن بعيد؟  
شعر كنانة بغير قليل من الارتياح، وأخذ يقول:

- إن كلماتك قد صورت الموقف أصدق تصوير.. لكن نحن  
لا نعتمد التأخير والتلكؤ كنا ننتظر نجدة من الروم أو الفرس ومنتظر  
نجدة من غطفان.. إن الضربة القادمة تحتاج إلى إحكام.. إن خير  
هى آخر سهم فى جعبة اليهود.. لكننا اضطررنا لسرعة الحركة  
عندما علمنا بالحشود التى يعدها محمد، ولن تمر أيام قلائل حتى  
يحتدم الصدام ستجدون راياتنا تخفق حول يثرب، ومحمد  
محصور لا يستطيع الافلات، ومن يدري قد يخف إلينا العرب من  
كل مكان.. وقد تنقض قريش «صلح الحديبية»..

شردت بنظراتها مرة أخرى إلى بعيد..

- إذن ستحسمون الأمر خلال أيام قليلة.

- بكل تأكيد يا صفية..

- هذا رائع.. عندئذ ينجاب الظلام، وتنطوى الأحزان..  
وننظر إلى السماء فى الليالى القمرية.. ويسود السلام، وتسكن  
النفوس.. هيهات إن الشقاء الذى أعانيه الآن ينوء به أقوى القلوب  
فى خير.

هز رأسه في أسي وقال :

- آه . . إن حقدك قد تحول إلى حزن صامت مقبى . .

أما زينب بنت الحارث فلها شأن آخر . . حقدتها قد تحول إلى  
طاقة مدمرة من العمل والتفكير . . تصورى أنها سوف ترسل اليوم  
عبداً من عبيدها لقتل محمد!!

هتف في دهشة .

- ماذا؟

- أجل . ليت لك من الجرأة والعزيمة نصف مالها ، إنها امرأة  
ذات شرف وكبرياء . .

إننى أحسد سلام بن مشكم عليها .

عاد إليها شيء من السكون ، وأخذت تردد!

- هذا هراء : لقد ثبت فشل مثل تلك المحاولات ولم تجر على  
اليهود إلا الوبال لو كنت مكان زوجها لصفعتها على وجهها . .

- كيف؟؟

- إنها نصف مجنونة . . أنا لا أرتاح لأفكارها ونزواتها . .

- ماذا فيها؟؟ إنها تسعد زوجها بل وتقحم نفسها في  
اجتماعات الرجال ، وتشارك بالرأى . . لقد أثبتت الأيام أنها أقوى  
من الضعف والحزن . .

هزت صفية بنت حبي بن أخطب رأسها قائلة : « إن لى رأياً آخر  
لا يسرك بالنسبة لها . . »



ثم استدكت قائلة :

- حذار أن تظن أنني أغار منها .. ما تمنيت قط أن يكون لي ما لها من «فضائل» ما استطعت في يوم من الأيام أن أطرب لأفكارها أو سلوكها .. إنها خربة الرأس متسعة .. لاثبات لقيمها .. هذا شيء نعرفه نحن وقد يخفى على الرجال .. وساد خيبر هرج ومرج شديدان ..

الشمس لم تشرق بعد، لكن مقدمات الضوء قد بددت الكثير من العتمة، وأبانت عن معالم الأشياء .. لكن عدداً كبيراً من المزارعين ومعهم إبلهم وأغنامهم قد عادوا مذعورين صوب خيبر ..

ووسط الضجيج الصاخب .. كانت هناك كلمتان تترددان «محمد، المسلمون» وساد الرعب كل مكان .. وصعد الرجال والنساء فوق الحصون والأماكن العالية وأخذوا ينظرون صوب الجنوب عبر النخيل والزروع ولم يعد هناك مجال للشك أو التخمين ..

إن محمداً ورجاله يعسكرون حول خيبر، ويسدون منافذها .. وخرجت زينب بنت الحارث مربدة الوجه، عيناها تطرفان في قلق وتهتف في حقد بالغ: «ماذا جرى؟؟»

وقبل أن يجيبها أحد، لمحت فهد يقدم مهرولاً تاركاً خلفه راحلته والخادم العجوز، وظلت زينب جامدة في مكانها، وعندما اقترب منها، صرخت:

- أيها النذل الحقير ..
- ليس الذنب ذنبى يامولاتى ..
- هل رأيتهم؟؟
- أهل .. محمد و ..
- صاحت:
- كفى .. لا أريد أن أسمع اسمه
- إن الأقدار هى التى أفسدت مخططاتنا ..
- لا دخل للأقدار فى شىء من هذا .. نحن حمقى وكسالى ..
- المجد يابى أن يمد يده لتعس مثلى .. أنا أعرف ذلك ..
- وانفرجت شفتها عن ابتسامة شاحبة ثعبانية وتمتمت:
- تستطيع أن تبحث عن المجد هنا .. ستدور على أرض خير
- رحى حرب ضروس لم يسمع محمد بمثلها قط .. والنصر لنا ..
- قال فهد فى خنوع - هل تغير قلبك نحوى؟؟
- دفعته فى صدره دفعاً عنيفاً وهى تصيح:
- أهذا وقت الغزل أيها الحقير الأبله؟
- طأطأ رأسه حزناً، وهمَّ بالانصراف، ولكنها أمسكت به،
- وأخذت تدقق النظر فى وجهه وملامحه، ثم قالت:

- لو تفوهت بحرف واحد عما كان بيننا . .

قاطعها في خضوع: - أعرف . ولن أفتح فمي . لأنك أعز لدى من أي مخلوق . . وأنا أحبك .

قالت وهي تضحك في جنون:

- قسماً لئن هزمتنا محمداً، لأغرقتك في متعة ما حلمت بها قط . هذا نذر على . إذهب وابحث لك عن سلاح .

وبقى فهد وحده يفكر .

أبيحث له عن سلاح؟ لماذا؟ عن أي شيء يدافع؟

لأول مرة تظن هذه التساؤلات في ذهنه . لقد انتصب الخطر خارج الأسوار، وبعد قليل تنهمر الدماء، وتتعانق السيوف، ويسقط الرجال، وخيبر تدافع عن زرعها، ونخيلها ودينها وتثار لشقيقاتها، ومحمد يحيى دينه، ويفتح الطريق لدعوته، ويضرب من هموا بضربه واغتياله . وأنا فهد من أكون؟

أنا شيء كالطفيليات في حديقة مولاي . أنا أداة . هل كنت سأذهب حقيقة لأقتل محمداً؟

- وسمع فهد مولاه سلام بن مشكم يصدر أوامره لمن حوله كقائد .

- أدخلوا الأموال والعيال حصني «الوطيح» و«السلام»  
وادخلوا المحاربين حصن «بطاه» وضعوا بعض القوات لدى حصن  
«ناعم» و«القموص» و«الزبير» واستعدوا لحرب لم تر لها العرب

مثيلاً.

وتتم فهد. «تري في أي حصن أذهب؟»  
 فسمع من خلفه عبداً من عبيد مولا، يقول بصوت رفيع مميز.  
 - إذهب إلى حصن العيال. هناك ستجد زينب.  
 وولى هارباً وهو يقهقه.



### الفصل العاشر

تمتم كبير المنافقين عبد الله بن أبي قائل لنفسه: «إنه عذاب من نوع غريب لا يستشعره غيري، فيبني وبين نفسي أمقت محمداً وأحتق على دعوته وانتصاراته، وأمام ابني والناس أظهر الخوف على محمد، وأتظاهر بإسداء النصيح له، وتبصير رجاله بما يجب أن يفعلوا، لكم تمنيت أن أجد المناخ المناسب الذي يبدو فيه ظاهري كباطني، وأن أعبر عما يجيش في صدري دون حرج، وأنا بين المقت الخفي، والحب الظاهري أقاسى العذاب . . لماذا لا أقف على ملاء من الناس، أطلق كلمة الحق التي أعتقد أنها صريحة مدوية وليكن ما يكون. وفي المدينة مسلمون وكفرة، ولكل واحد موقف، لا أنكر أيضاً أنني أطرب وأسعد للغش والخديعة والتأمر، ولا أنكر أيضاً أنني أؤدي دوراً كبيراً في سبيل الغاية التي أعمل لها. لكنني مع ذلك حزين. وليس مرد حزني إلى ما ينتابني وينتاب حلفائي من فشل . . لكن مرده الحيرة بين الصراحة والجبن، بين الانكشاف والانطواء، بين الشك واليقين . . واعذباها!»

ونطق آخر كلمة بصوت مسموع، وقد صادف دخول زوجه في ذلك الوقت، وعندما سمعته يقول ذلك هتفت.

- ماذا جرى؟

- لا شأن لك بما أقول.

ألست زوجك؟

- كلكم أعدائي ..

أدركت ما يرمى إليه، فقالت فى ضيق:

- كلهم ذهبوا لحرب اليهود، وقعدت أنت .. لو رأيت  
الفرسان يتيهون فوق جيادهم والسيوف فى أيديهم، لطرت  
إليهم ..

قال فى صوت أجش:

- أعهدتنى أخاف الحرب، أو أنكص عن التضحية؟

- وما قيمة الشجاعة إذا لم تصل وتحمل لأشرف غاية؟

- وهل تسمين الدم والحرب والخراب غاية شريفة؟

قالت فى حدة:

- ماذا جرى لك؟ ألم تعلم أن اليهود كانوا على وشك الهجوم  
على المدينة، ومعهم رجال من غطفان، وكان الرومان والفرس على  
وشك الاتفاق معهم .. فإذا فكر محمد فى حماية مدينته وجيشه  
ودعوته. وضرب المتأمرين قبل أن يبكروا إليه، وجهت إليه اللوم.

قال فى شرود:

- عيبك أيتها الحمقاء أنك تصدقين أى شىء.

- إن قصة اليهود مع الرسول حلقات متصلة من  
الغرور .. أنت تعرف ذلك.

- دعى ما فات . . ماذا فعل خير؟
- أنت أخبرتنى ذات مساء أن تأديب المسلمين سيكون على يد خير . . وأنا أصدقك . . إن لك فى خير صداقات وطيدة وأنت تزورهم .
- قال وقد ارتحفت لحيته : - كنت أمزح .
- لكن المخلصون الذين يحملون الأنبياء للرسول لا يمزحون وعاد إلى شروده وأخذ يقول :
- تتهميننى بالقعود والكسل . . وهل نسيت أن محمداً قال لن يخرج معى إلى من شهد «صلح الحديبية» وبيعة الرضوان؟ فكيف أخرج معه؟
- ابتسمت . وسددت إليه نظرات عاتبة وقالت :
- لم لا تكمل كلامك؟ إنك تنتقى من الكلام ما يؤيد وجهة نظرك دائماً . . لقد فتح محمد الباب لمن يريد الخروج على ألا ينال شيئاً من الغنائم، إن السابقين الأولين الذين خرجوا إلى الحديبية وبايعوا محمداً على الموت أولى بالتكريم والإعزاز .
- قال ساخراً : - أأخرج وأحارب بلا غنائم؟
- لم لا تخرج من أجل الله كما خرج غيرك؟
- لم يندبنى الله لأمر كهذا . . إن ترك اليهود لن يؤدى لضرر بالغ .

- ها نحن نعود إلى الجدل العقيم من جديد .  
جذبها من كمها وحدها بنظرات مخيفة وهتف :  
- سيعود المسلمون مخذولين منهزمين .  
صرخت : ماذا؟ إنك تهذى .  
قال فى اهتمام : لقد رتبوا أمرهم . وأعدوا لجيش محمد كميناً  
لن يعود منه سالماً ، وهناك أبطال مغاوير ، ومال وسلاح وزروع  
وقوم لن يستسلموا .  
همست فى خوف وقد دق قلبها :  
- أى كمين؟ ولماذا لم تخبر الرسول به؟ .  
قهقه فى سخرية :  
- وهل سألتى رأى؟ إنه دائماً يطيع الصبية ويعصينى . . من  
أنا؟ أنا عبد الله بن أبى ، أصفى الخزرج فكراً ، وأصوبهم رأياً ،  
وأبعدهم نظراً . . لكن محمداً يزعم أنى منافق ، إن خير سوف  
تلقن المسلمين درساً لن ينسوه مدى الحياة إن بقيت لهم حياة .  
فكرت المرأة ، وأخذت تتصور ما يمكن أن يحدث لو أن هناك  
كميناً منصوباً ، ماذا تفعل أتهرول إلى الشارع ، وتخبر الناس بما  
سمعت ، لعل أحدهم ينطلق بجواده محاولاً اللحاق بجيش  
الرسول كي يحمل إليهم التحذيرات؟ لكن يقيناً من نوع رائع أنزله  
الله فى قلبها ، فقالت وقد هيات نفسها :



- فى كل حرب كنت دائماً تقول إن محمداً وجنوده سينهزمون . .

- أنا؟

- أجل . . وكانت النتائج دائماً تأتى غير ما قلت .

- متى؟

- فى بدر، وأحد، والأحزاب، وبنى قريظة، وبنى النضير وغير ذلك قال فى حدة: - يا حمقاء أنا لم أقل بالهزيمة، كنت أتحدث عما يجب أن يكون بصرف النظر عن الهزيمة والنصر . . إن النصر لا يعنى إننى كنت على خطأ . . قد ينتصر المخطئون، لكن ذلك ليس معناه أنهم سلكوا أعقل السبل إلى النصر .

- وهل أنا غير ذلك؟

- ليس لدى أسباب قوية لتنفيذ دعواك، لكنى عندما أنظر إليك، وأستعيد تصرفاتك وحياتك . . أشك فى أى كلام أسمعه منك، ربما تكون قد أوتيت براعة فى الحديث . وقوة فى الحجج . . لكنى أشعر فى أعماقى بأنك لست على حق .

ودوت صفعة على وجهها فجأة:

- ماذا تقولين يا خاسرة؟

وضعت يدها مكان الصفعة، وسددت إليه نظرات دامعة، وأخذت تفكر فيما قالت، لقد كانت كلماتها بالفعل قاسية، وهى

لم تكن تجرؤ على قول مثلها فى الزمن الغابر، لكنه على أى حال زوجها، والرجل والمرأة مختلفان، لكل منهما مكانته مهما كان الأمر.

- أعترف بأنى أسأت إليك يا عبد الله .

- كما لم يسيء أحد من قبل .

إنها سقطت لسان .

قال فى انفعال ..

- ليس العيب عيبك .. لكنه عيب الدنيا .. كل شئ يتغير ..

أسس كثيرة تنهار، وتخلو مكانها الأفكار ما كان أحد يصدق أنها ستبقى روحها على الناس .. العيب فى المبادئ الجديدة .

جففت دموعها وانطلقت تقول :

- إني اعترف بخطي، وأعتذر لك، لكن ..

- لكن ماذا؟

- لا تعرض بمحمد .

- أنا لا أتكلم عن محمد النبي .. بل أتكلم عن محمد البشر .

أمسكت بيده فى ضراعة، وقالت متوسلة :

- بالله عليك يا عبد الله لا تقل مثل هذه الكلمات .. إنك

تنقد الرسول دونما تحفظ، وهذا يبعث القشعريرة فى جسدى، ويسرع بدقات قلبى إنك تعرض نفسك لغضب الله، وأنا أريد لك

الخير يا عبد الله . . أنت زوجي . . لا تحاول أن تلتمس المعاذير  
لتصرفاتك . . إن هذه التبريرات إذا أقنعتك أو أقنعت أحداً من  
الناس . فلن تجدى عند الله فتيلاً . . كن شجاعاً واسحق أساك  
وأهواءك . . لتكن حكيماً . .

لكنك غير موفق . . لن تخسر شيئاً إذا وطدت عزمك على  
الإيمان بمحمد وبكل ما يفعل، فإن يك كاذباً فعليه كذبة، وإن يك  
صادقاً يصيبك بعض الذي يعدكم . . لقد تعبنا من طول الجدل .  
قال في شراسة: - أما أنا فلن أتعب حتى يطبق جفنى إلى  
الأبد . . حتى الموت .

قالت في حزن: واعذباها!! أنت أيضاً تقولينها . . كلانا يقولها  
لكن بطريقة تختلف عن الآخر .

- بل أقولها من أجلك يا عبد الله .

- وأنا أقولها من أجل المساكين من الناس الذين يذبحون الآن  
على أبواب خبير .

وسادت فترة صمت قالت الزوجة بعدها:

- دائماً نتجادل ولا تنته إلى شيء .

- لأنك امرأة عنيدة . .

- بل لأنك رجل عنيد . .

ثم رفعت يدها إلى السماء، وقالت وقد تندب عيناها  
بالدموع:

- اللهم اهد زوجي وشرح قلبه لنور الإيمان بالإسلام، واملاه بحب رسولك الكريم.

قال وقد تحبهم وجهه، وارتحف شعر لحيته:

- لا تضرعي من أجلى .. إن دعواتك فى الهواء .. إن بيدى مصيرى .. أنفهمين؟

طأطأت رأسها ثم استدارت، وعادت من حيث أتت ..



### الفصل الحادى عشر

استقبلت مكة «صلح الحديبية» بغير قليل من الارتياح، بل إن بعض بيوتها سعدت به أيما سعادة، فالذين لهم إخوة أو أبناء أو آباء تبعوا محمداً، نالوا قسماً من الطمأنينة، فالحرب لن تنشب طوال مدة العهد، ولن يواجه الابن أباه فى معركة دامية من أجل العقيدة وحمايتها، وأولئك الذين تستروا وأخفوا سلاحهم رضوا بما حدث انتظاراً لفرج الله حسبما وعدهم الرسول، ورجال المال والتجارة كانوا أكثر الناس رضى بهذا الاتفاق، فقد فتح أمامهم الطريق الآمن مرة أخرى إلى الشام، وبالتالي ستشط الأسواق، وتنتعش حركة المال، وسينعكس ذلك كله على التاجر الكبير والجمال الصغير سواء بسواء، أى أن الفائدة ستعم القاصى والدانى، لكن بعض المتحمسين والحاقدين قد انتابهم غم شديد، قد رأوا فى هذا الاتفاق رفعاً لشأن محمد بين العرب إذ أنهم فاوضوه مفاوضة الند للند، كما أنه سيجد الفرصة كي يرتب أموره، ويزيد من أتباعه ويتفرغ لنشر دعوته، وتقوية صفوفه، والحاقدون أيضاً يكرهون الانتظار، إنهم لا يستشعرون الراحة والرضى إلا إذا رأوا الصراع يحتد، والدماء تسيل، وعدو ينزوى كي يلحق جراحه، لكن صوت العقل كان أقوى من صوت العواطف النافرة الحاقدة، فانصاعت مكة للوضع الجديد عموماً ورضيت به.

ولم يكذب على عقد الصلح شهر أو أقل من شهر، حتى تواترت الأنباء عن حرب وشيكة الوقوع بين محمد واليهود في خيبر، وقد حظيت هذه الأنباء باهتمام بالغ وأخذ صداها يتردد في الأندية والمسامر، وأصبحت حديث الجميع في البيوت، وحول الكعبة وفي الأسواق، لم يقابل صراع محمد وخيبر بمثل ما قابل به صراعه في بنى النضير أو قريظة، فالجميع يعرفون أن خيبر لها ميزات كبرى تجعل لها التفوق الكاسح، ففي خيبر المحاربون الأقوياء، والقادة الأذكياء، وفيها المال الوفير، والمؤن الكثيرة، وفيها الوعي الكامل بدورهم الخطير إزاء الأحداث، فهم معقل اليهود الأخير في الجزيرة وعليهم تتركز الآمال.

وفي مجلس من مجالس الطرب والشراب، مال عكرمة بن أبي جهل على خالد بن الوليد بعد أن كف الضجيج، وفرغت الكؤوس وقال عكرمة:

- يا ابن الوليد.. ألم أقل لك؟؟ إن صلح الحديبية سيكون ضربة لنا في الصميم.

- كيف؟؟

- هادننا محمد بالأمس ليميل على اليهود غداً. والحرب ربما تدور رحاها الآن في خيبر، ومحمد آمن تماماً، ولن يقطع أحد من الخلف، لو انتصر عليهم محمد، فسيكون ذلك هزيمة كبرى لنا.

قال خالد:

- لسنا طرفاً فى النزاع .
- أعرف . على الأقل حالياً ، عندما تنتهى الهدنة ، يكون محمد قد فرغ من كل أعدائه ولن يبقى سوانا ، الحق أننا طعنا اليهود إذ عقدنا صلح الحديبية . لكن .
- قال خالد وهو يستمع فى اهتمام بالغ : لكن ماذا؟؟؟
- ليس الأمر بالسهولة التى أتحدث بها ، أعنى أن خيبر لن تهزم .
- وما تفسيرك لذلك؟؟
- خيبر قلعة حصينة ، وبها إمكانيات لا تنفذ .
- أعرف .
- لذلك فإننى أراهن على أن محمداً ورجاله سيهزمون .
- يهزمون؟؟ هذا ما أشك فيه .
- أعتقد ذلك كقائد؟؟
- أجل .
- بل سيعجز المسلمون عن اقتحام أسوار خيبر وقلاعها ، سينبثق الموت فوقهم كلما هموا بالدخول . ولا طاقة لمحمد ورجاله على حصار طويل قد لا يؤدى إلى نتيجة .
- قال خالد فى شىء من الشرود :

- كل ما أعرفه أن محمداً يحسب كل شيء بدقة، ورجاله لا يعوزهم الإصرار واقتحام المخاطر.
- ستكثر ضحايا المسلمين دون فائدة.
- أحياناً يا عكرمة يلجأ محمد إلى الحرب الخاطفة، وأحياناً أخرى يتسم بالأناة والصبر على النضال الطويل، إنه يلبس لكل حال لبوسها ولا ييأس أو يتقاعس. ولنا في بنى قريظة وبنى النضير عبرة، لم تقف القلاع والحصون والعدة والمخزون من الطعام والماء حجرة عثرة في سبيله.
- قال عكرمة بن أبي جهل في إصرار:
- أقسم أن خيبر ستقهر المسلمين أتراهن على ذلك؟؟
- إن تمحيصى للأمر يعطينى نتيجة غير التى تتصورها.
- أنا لا أجدف، ولكنى أقيم تصورى على أسس عقلية متينة.
- لندع هذا الأمر حتى الصباح، ولوح عكرمة بيده فى حماس قائلاً:
- وغطفان ستساعد خيبر.
- لن يغير ذلك من النتيجة المرتقبة.
- ولدى اليهود دائماً حيل ومكائد لا تنفذ.
- الأمر أكبر من ذلك يا عكرمة.
- كيف؟؟



- آه. لقد التحمت مع المسلمين كثيراً أنت تعرف، أتذكر يوم «أحد» آه. إن للحرب عندهم مذاقاً خاصاً، فهم يستشعرون متعة كبرى وهم يصارعون ويسقطون. أما نحن فنتحرك في توتر، وندفع في حقد، والذي يسقط يشعر بحزن عميق قاتل يرافقه في رحلة الموت المضيئة. هناك شيء غير القلاع والحصون والعدد والعدة، والمكائد والحيل. إننا أمام ظاهرة من ظواهر الحياة فريدة. في يثرب رجال أمرهم عجب. ألم تفكر في الأمر من قبل؟؟

قال عكرمة في شيء من الضيق:

- بل كنت أفكر دائماً، رأيت رجالاً يهزمون ويتصرون، ويخافون أو لا يبالون. شأنهم شأن باقي الناس. وفي رجالنا رأيت صورة مشابهة لذلك. الناس في يثرب أو في مكة بشر. أما هذه الصورة المثالية التي تتوهمها لرجال محمد فهي صورة غير صادقة.

قال خالد في شيء من الملل:

إنك ترفض أن تفتح عينيك وعقلك جيداً.

- ما معنى ذلك؟؟

- قالها عكرمة وابتلع ريقه، واستطرد:

- أنت معجب برجال محمد ومبادئه.

قال خالد دوغماً أكثر:

- لك أن تتصور ما شئت. لكن الذي يهمني في الأمر هو أن

تفهم عدوك على عقيقته . كى تعرف كيف يفكر، وكيف يحارب، والأسس التى يطلق عليها، والغاية التى تحركه، وعندما تفهم عدوك يا عكرمة، تستطيع أن تستنبط الوسائل المناسبة لجودة أو فساد تخطيطاته .

- أتفهمنى؟؟

قال عكرمة، وهو يمسك بيد مرتجفة كأساً من شراب :

- ستتصبر خير .

قال خالد باسماء :

- سينهزم اليهود .

- اليهود لن يستسلموا هكذا بسهولة فى آخر معقل لهم .

- ومحمد لن يترك مكمنا الخطر الدائم يهدده، لقد حشد اليهود له وكانوا على وشك الانقضاض على المدينة .

قال عكرمة مهتاجاً .

- ستتصبر خير .

- بل ستهزم .

- أترأهن؟؟

- أراهن يا عكرمة .

- على خمسين ناقة .

- موافق .

وهكذا كان شأن مكة، نقاش لا يهدأ، ورهانات فى كل مكان، اهتمام شديد بما يجرى فى الشمال، وتجسس للأبناء فى كل مظانها. وخروج ذوى الفضول من أهل مكة مساءً وصباحاً إلى مشارف البلدة يستقبلن المسافرين، ويتسقطون الأخبار فى لهفة عارمة، وقلق بالغ.

قال أبو سفيان لزوجته هند وهو يأوى إلى فراشة:

- يا للعجب!! استطاع محمد أن يشغل بال العرب بحكاياته وأيامه وأفكاره.

ليس فى مكة بيت إلا ويتحدث عن معركة خبير.

قالت هند وهى تحدج بنظراتها الحانقة.

- إن حماقتنا هى التى مهدت له الطريق.

- ليس الأمر كما تتوهمين: لم ندخر وسعاً فى مناوئته.

قالت ساخرة:

- ولم تدخروا وسعاً فى مرضاته، وطلب الصلح. هل نسيتم

صلح الحديبية؟؟ يا للعار!!

- لم نسع إلى صلح الحديبية جنباً. لكننا فى الحقيقة كنا فى

حاجة إليه ولو لم تفسح طريق التجارة إلى الشام لعم الفقر، وضج

الناس بالشكوى، بل لربما ضاقوا ذرعاً بنا وتصرفاتنا وهزلوا إلى

محمد يعرضون إسلامهم إننا لا نسلم لمحمد بأى رغبة إلا إذا تأكدنا

ضرورتها لنا ونفعها لأهل بلدتنا. إن السياسة شيء آخر غير التهور.

قالت فى ضيق :

- وصرخات الدم الذى أراقه محمد؟؟

- تتحدثين كامرأة فقدت أحباءها .

- وأنت؟؟ ألم تفقد أعزاء لديك؟؟

- أنا لا أنظر إلى الأمر يا هند من زاوية شخصية . هنا جموع الناس ومسئوليتى عنهم . قلت ذلك من قبل . ما أشد ألى على فقد حنظلة ولدى . وفقد عتبه وشيبة وغيرهم . إن أمير القوم يعتبر الناس جميعاً أبناءه ، وإلا امتلأت قلوبهم بالحقد عليه ، وانصرفوا عنه .

فهتفت فى غيظ :

- تتكلم كنبى - الجميع فى هذا الزمان يحلمون بأن يكونوا أنبياء .

- أسخرين منى؟؟

- آه: ذلك الرجل الذى لعب بكم ، وحطم كبرياءكم ، وجعلكم مادة للهزاء والسخرية فى طول الجزيرة وعرضها . وامصبيته . لسوف يأكل اليهود ، ثم يستدبر نحوكم .

- لن ينقض محمد صلحه .

- لن يعدم الأسباب يا أبا حنظلة .
- قال فى شىء من الضيق :
- لمَ تسبقين الأحداث؟؟ انتظرى لعل أمراً ما يحدث فى خير . إن خير خصم هنيد .
- اقتربت منه فى لهفة قالت :
- اعتقد أن اليهود سينتصرون ، إن لك تنبوءاً بالأحداث كثيراً ما يصدق . قل الحق .
- ليس من السهل الحكم على أمر كهذا .
- إنك تتعمد إغاطتى .
- اليهود لن يهزموا بسهولة . .
- ومحمد؟؟
- قال !! وسفيان .
- لن ينتصر بسهولة أيضاً .
- لا تراوغ . أينتصر أم يخسر؟
- الحق إننى عاجز عن التنبؤ .
- أخذت تدق الأرض بقدميها فى حنق وتقول :
- الجميع يتخبطن . ليس هناك أحد فى هذه الديار قادر على أن يجزم برأى ، هذا هو الضياع بعينه . آه لو ملكت زمام الأمور فى هذا البلد .

هز رأسه في ابتسامة خافتة وقال :

- النساء والشعراء لا يصلح أى فريق منهما لسياسة الأمور ،  
ثم استدار نحوها وقال مؤنباً : - ألم تفكرى فيما قد يحدث من  
هزيمة ! الاحتمال الوحيد عندك هو النصر . ألم تتصورى القتلى  
وهم مطروحون على الرمال تنهشهم الطيور الجارحة والضباع .

صاحت في حيرة :

- الموت أهون من الرضى بالذل .  
- أى ذلك يا امرأة . نحن أحرار فى بلدنا ، ولقد أملينا شروطنا  
فى صلح الحديبية .

قالت ساخرة :

- ولماذا نزل القرآن على محمد قائلاً : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ . ثم  
تمتت فى هدوء عاصف :

لسوف تنتصر خير .

تنهد قائلاً :

- أرجو أن تتحقق آمالك .

- أتراهن على ذلك بمائة من الإبل .

ابتسم أبو سفيان وقال :

- خذى كل شىء ودعيني أتم يا هند .

همست :

- تنام ملء جفنيك. وأنا أستلقى على ظهري مفتوحة العينين. أمارس في الأحلام ما أعجز عن تحقيقه في اليقظة، حتى تهدأ أعصابي ثم أنام.
- قال دون اكتراث:
- لسوف تصابين بالجنون.
- دفعته في صدره حائقة، ثم انصرفت عنه.



### الفصل الثاني عشر

فى حصن «نطاد» احتشد أغلب المقاتلين من اليهود، وعلى رأسهم قائدهم سلام بن مشكم، كانوا عدداً كبيراً من الرجال الأشداء الذين مارسوا الحرب طويلاً، ونضجوا فى نيرانها الحارقة، وعنفتها البالغ وقف سلام بن مشكم بينهم خطيباً:

أيها الرجال الأبطال، لم يعد هناك مجال للتفكير أو للبحث عن مخرج. أنظروا العدو يحيط بكم من كل جانب. ليس أمامنا سوى الحرب. اقتلوا فى أنفسكم كل نازعة أمل فى حل سلمى. واضربوا بقبضاتكم الحديدية كل فم تخرج منه فلسفات عقيمة عن الندم أو اليأس والصلح. لا حل إلا بسواعدكم وبسيوفكم. . محمد ورجاله جاءوا مستقتلين. إما النصر أو الموت. وليكن هذا شعاركم. بل أنتم أولى بهذا الشعار من المسلمين. فلو انهزم المسلمون للموا شعثهم واستنصروا بإخوان لهم فى المدينة. أما أنتم فليس لكم أحد الآن ينصركم إلا عزيمتكم. الحرب حتى الموت – فما قيمة الحياة فى ظل الهزيمة؟ أما أن يأخذونا عبيداً، أو يضربوا أعناقنا كما فعلوا فى بنى قريظة. أو يقدفوا بنا فى قلب الصحراء حيارى أذلاء تائهين – إن أعظم شئ ينقذكم وينقذ نساءكم وعيالكم هو التسابق إلى الموت.

هتف كنانة بن الربيع:



- القول ما قلت يا سلام . فوالله لن تكرر المأساة . ولن تنزل من حصوننا مجردين من السلاح مطأطئي الرؤوس كما فعل نعاء بنى قريظة .

وقف الحجاج بن علاط تاجر اليهود المعروف وقال شاحب الوجه . مضطرب الأنفاس .

- افسحوا صدوركم قليلاً ، الوقت عصيب ، وخير الكلام ما قاله سلام بن مشكم ، نعم الرجل هو ، لكن ألا ترون أن نصالج محمداً على نصف مزروعاتنا ، ونحيا في سلام ؟ انطلقت كلمات الاحتجاج من كل مكان ، وناشته ألسنة السوء ، وحاصرته النظرات الخائفة ، ولوحت الأيدي المتوترة بسيوفها وشعر ببصقات لزجة تضرب صفحة وجهه من كل اتجاه ، وتمتم في جزع :

- إننى أعذركم . مادام هذا رأيكم فسأتقدم الصفوف . وصاح سلام بن مشكم : « الحرب . وتبعه هدير صاخب :

- الحرب حتى الموت أو النصر .

وصاح أحد الجنود أسفل الحصن :

- إنهم قادمون . »

وساد هرج ومرج ، وتدافع يهود خيبر من حصن «نطاد» لملاقاة المسلمين . . وفى حصن الوطيح جلس بعض النسوة يشوبهن الوجوم والقلق ، وعيونهن ترمق المحاربين عبر النوافذ والكوات الصغيرة ، لا يصرفهن عن ذلك صياح الأطفال وضجيجهم ،

ووقفت زينب بنت الحارث مشدودة القامة ثم دارت بنظراتها هنا وهناك حتى رأت صفية بنت حيى بن أخطب زوجة كنانة، فمضت نحوها، كانت صفية تجلس شاحبة الوجه، شاردة النظرات، وقد أسندت خدها على قبضتها اليمنى، وبدت الكدمة بجوار عينيها زرقاء متورمة.

- طاب صباحك يا صفية.

رفعت صفية إليها عينيّن محتقتين وتمتمت:

- طاب صباحك.

- «فيم تفكرين»

- «أنت تعرفين. وهل هناك شيء نفكر فيه سوى مايجرى الآن؟».

- رجالنا يضربون فى شجاعة. صبيحتهم تشق عنان السماء لم يتقهقروا قيد شعرة.

قالت صفية:

- كان فى الإمكان تجنب إراقة الدماء.

- كيف؟

- لو لم نعتزم السير إلى محمد.

- هذه ترهات. كان لابد من الحرب. ولا مجال للنظر إلى الماضى الآن.

- محمد يا زينب لا يرد طالب صالح.

هاجت زينب وماجت وقالت محتدة:

- «أنحن الذين نتقدم بطلب الصلح. الأقوياء يملون شروطهم بسيو فهم، ليس هناك شيء اسمه الصلح بالنسبة لهم.

إنهم يصدرون أوامرهم فقط».

قالت صفية في شرود:

- القادمون من «يثرب يعرفون الطريق جيداً، ويعرفون مشاقه».

لكن محمداً أمر بضرب عنقه.

- مات مصراً على رأيه، مرحباً بالتضحية في سبيله، أنا لا ألوم أبى ولا ألوم محمد كلاهما كان ينشد النصر ويعمل له، وكان لابد أن ينتصر أحدهما.

قالت زينب في سخرية:

- أعرف كل شيء. أنت مطمئنة غاية الاطمئنان، فلو قدر لمحمد الفوز لاستطاع «كنز بنى النضير» الذى يستحوذ عليه زوجك إنقاذكم - إنك مطمئنة إلى ما عندكم من ذهب، وتخافين عليه - ولتذهب خبير إلى الجحيم، ولتذهب المبادئ... والدين إلى أية داهية. أيتها الطامعة!!».

- احذرى أن تخوضى فى حقى -

- ها. ها. من أنت..

- أنا صفية..

- وأنا زينب - زوجة الرجل الذى يحمل اللواء ويكافح عن شرفكم الضائع.

تغير وجه صفية، ورقصت عيناها فى اضطراب، وصرخت كمجنونة:

- إخرسى يا ساقطة.

- وتندى جبينها بالعرق الغزير، وأخذت تلهث من الانفعال، بينما جمدت زينب فى مكانها وقد هرب الدم من وجهها، وهمت بأن تنشب أظافرها فى عنق صفية، لكن النسوة كن قد تكاثرن حولهن، وأمسكن ببدى زينب، التى انفجرت باكية، وأخذت تخمش وجهها بأظافرها وتشد شعرها، وتصرخ فى لوعة..

وشعرت «صفية» بغير قليل من الندم، لقد طعنت المرأة فى أعظم ما تعتز به، وعلى مشهد من النسوة، وهذا لا يليق بها أو بأخلاقها، ومن ثم هبت واقفة، ومضت صوب زينب، وقفت أمامها وقد انغضت رأسها فى أسف وقالت:

- آسفة يا زينب. إنها سقطة لسان قبيحة، كان ما حدث على الرغم منى، أعذرينى، فأنا لم أتم دقيقة واحدة من الليل. إنى جد متعبة.

وتبللت عيناها بالدموع ، ثم أمسكت برأس زينب وقبعتها نادمة . وعادت صفية تقول :

الرجال يموتون . ونحن هنا نتصرف بلا عقل .  
وردت امرأة .

- لماذا لا نقيم الصلوات حتى ينصر الله رجالنا بدلاً من الجدل العقيم؟

قالت زينب وهي تحفف دموعها :  
وهل يقبل الله الصلوات من ساقطة؟  
ثم شهقت باكياً مرة ثانية . .  
بينما قالت صفية :

- أكرر اعتذارى يا زينب . . إن زوجك بطل مغوار ، وأشهد الله أنني لم أرَ بعيني ما يسىء إلى شرفك .

قالت زينب ، وقد أثلج قلبها حديث صفية الأخير :

- الحاققات كثيرات . إنهن يغرن منى . يردن أن يهدمن بيتى ويطلقن من حولى الأفاويل والشائعات . لكن الجميع يعرفون من أنا وزوجى يعرف من أنا . وأخذت النسوة يتهايمن ، ماذا جرى؟؟  
أية أفاويل وأية شائعات؟ لابد وأن فى الأمر سرأ .

وأخذت العيون الفضولية تقيس زينب بنظراتها النهمه ، بل أصبح «سر زينب يشغلن أكثر مما تشغلن الحرب المحتدمة الأوار

وتعالت صيحات الجند أكثر من ذي قبل، وانطلقت التكييرات تصم الآذان، فجرت النسوة صوب النوافذ والكوات. لا بد وأن حدثاً كبيراً قد جرى، ترى هل انكسر اليهود؟

وأخذ البعض يهبط السلم ويصعدن ثانية، ويتنسمن الأنباء وأخيراً أتى أحد الحراس القريبين، واقترب من النافذة، وأعلن بصوت جريح:

- لقد قتل القائد. قتل سلام بن مشكم.

بقيت زينب مبهوثة لحظة، ثم صرخت وقد ران الصمت على الجميع.

- مستحيل. زوجي لن يموت. مستحيل. أنتم تكذبون. ثم انتزعت نفسها من بين أيدي النسوة، وهبطت السلم مسرعة، وهي تقول:

لا بد أن أرى بنفسى. زوجي لا يموت. سلام أقوى من الموت. لقد وعدني بالنصر. وبأن يقدم لى زوجات الرسول هدايا. وعلى رأسهم بنت أبي بكر. سيكون لى سبايا. هذا ما قاله سلام يكذب علىّ ولم يخدعنى. إنه يحبنى على الرغم من سفالتي. إن زوجي أعظم إنسان فى الوجود. كيف يموت؟ أنتم تكذبون.

وشقت صفوف الجند، ومضت عبر السيوف والدماء والغبار وصيحات الحرب، لم يستطع أحد أن يمنعها، بالمصبيتنا. إن القيادة فى يد رجل غيره. وعادت بعد فترة. وصعدت إلى حصن

«الوطيح». والنسوة يستقبلنها صامتات باكيات. ثم ألقت بجسدها  
المنهك على الأرض، وهتفت فى وهن:  
- لقد مات.

ثم تمددت على الأرض، قد تصلب جسدها، وجحظت  
عينها، أخذت تضرب يديها المتشنجتين وساقها فى الهواء، ومن  
فمها تنساب رغوة بيضاء، وتصدر عنها أنات طويلة عالية على  
الرغم من إغلاق فمها.

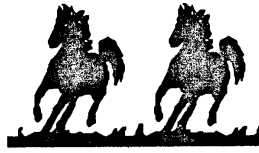
واقتربت صفية منها، وأخذت تدلك لها جسدها، وتسوى  
شعرها، وتمسح الزبد الذى يطفر من فمها.

ولم تفق إلا بعد وقت طويل.

كانت أشد ارهاقاً وشحوباً.

وتمتت وهى تستغرق فى النوم.

- أقسم برأسك «بدمك» لن أفرط فى تأرك يا سلام بن-  
مشكم.



### الفصل الثالث عشر

كان القتال مريعاً قاسياً، واستمات اليهود في الدفاع استماتة كبرى، وقلت الأقوات لدى المسلمين، وطالت المعركة أكثر مما يجب، وأصدر الرسول أمره لجنوده بأن يأكلوا لحوم الخيل، ثم أمرهم بأن يهاجموا حصن «الصعب بن معاذ» حيث أن به كثيراً من الأقوات، وقد استطاع المسلمون الاستيلاء على هذا الحصن وما فيه من طعام. واستمر القتال حتى سقط القائد اليهودي الثاني بعد أن استطاع المسلمون العبور إلى داخل حصن «ناعم» بقيادة علي بن أبي طالب. بعد أن استعصى الاستيلاء على هذا الحصن فترة ليست بالقصيرة.

قال علي بن أبي طالب لعمر:

- هؤلاء اليهود كلفونا وكلفوا أنفسهم الكثير من الجهد والعناء، وماذا لو التزموا بالإنصاف، ولم ينقضوا العهود، ونعموا بالحياة وحرية العقيدة؟

لو فعلوا ذلك لتجنبوا وإيانا شقاءً طويلاً.

قال عمر بن الخطاب وهو يتنهد:

- كنا نظن أنهم سيكونون أقرب إلينا من كبار رجالات مكة لأنهم أهل كتاب، لكنني تيقنت من غدوهم وجحودهم منذ البداية،



لم يتركوا فرصة لنقض العهد إلا انتهزوها، ولم يجدوا أعداء لنا إلا وحرصوهم علينا، وانضموا إليهم في بعض الأحيان. وثالثة الأثافي اعتزامهم الهجوم على المدينة والاستعانة بالفرس والرومان وغطفان.. أكان يمكن أن ننتظر أكثر من ذلك، ونعرض دعوتنا للخطر.. لقد جاء رجال من غطفان فعلاً لكنهم جبنوا عن الالتحام في المعركة بعد أن رأوا تفوقنا وحصارنا العنيد لخير.. الحق أن ثقتي باليهود ضعيفة منذ البداية، ولهذا كنت أرفض سياسة المهادنة معهم، لأن معناها المزيد من المؤامرات والتخريب ضدنا.

قال على:

- لم يكن هناك مفر من حمل السلاح.
- وهذه هي آخر جولة بالنسبة لهم.. ولست أدري ماذا يفعل بهم الرسول إذا تم النصر لنا.
- كل ما يفعله الرسول خير وحق يا عمر.
- إن العفو عن أمثال هؤلاء يا على يكلفنا الكثير من الدماء والقلق..
- تلك إرادة الله.
- الحقيقة يا على أنهم قاومونا بعنف بالغ.. إنهم ما زالوا يضربون في حنق وشراسة-
- اليهود ذوو أطماع وحقد، والتعاليم الزائفة قد أثقلت عقولهم ومشاعرهم يا عمر- وإصلاحهم أمر ميثوس منه، وإن قوماً

هذا شأنهم، سيجلبون على أنفسهم التعاسة في أى أرض يحلون بها.

وفي حصن «الوطيح» عضت زينب بنت الحارث على شفتها السفلى في غيظ حتى دميت.

- واكرباه.. رجالنا يناضلون ويسقطون.. لكن الأعداء يتقدمون، لقد استولوا على عدد كبير من الحصون.. أية كارثة تنتظرنا؟ ما معنى ذلك؟ أينتهى كل شيء؟ أين الله؟ هل تركنا وانصرف إلى محمد؟

وكم كانت دهشتها عندما سمعت صفية بنت حيى تقول:

- أجل، الحق ليس فى جانبنا.

استدارت إليها زينب بعيون تطلق نظرات شرسة وقالت:

- إن الهزيمة تكاد تقضى على إيمانك ومعتقداتك..

- لا.. كان ذلك منذ زمن بعيد..

صرخت زينب:

- هل محمد على حق؟

- محمد ليس على باطل يا زينب.

- ونحن؟

- أنت تعرفين..

- هذا هو المروق بعينه . . لو سمعك زوجك لفصل رأسك عن جسلك .

- لن يكون لديه وقت لذلك . .

- يا للمصيبة!! هل نسيت أباك؟

- هذا أمر آخر .

- وكم كانت دهشة النسوة حينما وجدن «كنانة بن الربيع» زوج صفية، يأتي مهرولاً تلتطخ الدماء وجهه ويديه ويهتف:

- هيا يا صفية . . لقد سقطت جميع الحصون . . لم يعد هناك سوى جيوب صغيرة للمقاومة .

- ماذا تعنى يا كنانة؟

- لسوف نهرب . .

- وانطلقت قهقهة عالية .

- وتلفت الجميع إلى آخر الساحة . . كانت زينب تستمع لما يحدث وقالت زينب بصوت مرتفع:

- إن صاحب الكنز المخبوء لا يمكن أن يضحى بحياته . .

مات الرجال . . ماتوا أبطال . . أما أنت يا كنانة بن الربيع فلن تموت . . إن شعورك قد مات منذ زمن بعيد . . وامرأتك هي الأخرى تزعم أن محمداً على حق . .

طأطأ كنانة رأسه لحظات، ثم أبدى عدم الاكتراث بما تقوله زينب ومال نحو صفية قائلاً:

- لمَ لا تردين؟ لم يعد هناك أمل... إن من ينجو بنفسه هو الراجح فعلاً... العودة إلى الحرب حماقة. لقد انتهى كل شيء... البقاء هنا معناه الموت أو العبودية... أتدركين الحقيقة؟

- وصاحت زينب:

- الرجال الأبطال لا يفكرون إلا في الموت شرفاً... أما الخثالة فلا يسيطر على أذهانهم إلا الحياة والكنوز.

فلم يعد يُعرّضها كنانة التفاتاً، وصرخ بصفية:

- لمَ لا تتكلمين؟ لم يعد هناك وقت للتفكير...

قالت صفية في هدوء غريب:

- لن أرحل...

صفقت زينب بيديها قائلاً:

- امرأتك أشرف منك يا كنانة...

استدار إليها كنانة في حقد:

- اصمتي يا فاجرة.

رمت زينب بنظرات شذراء وقالت:

- لو كان سلام بن مشكم حياً لما جرؤت على التلفظ بهذه

الكلمات . جذب كنانة صفية من كتفها وقال :

- كيف تفكرين ؟ لو فقدنا الفرصة الآن ، فلن تعود إلى الأبد .

- لن أرحل ..

- هل أصابك جنون ؟

- بل فى كامل وعى .

- إنك تربطين نفسك بذل أبدي .

- بل بعز الدهر ..

- كيف ؟

- هذا شأنى ؟

- أتخالفين أمرى ؟

- مرة واحدة .. لقد التزمنا بأرائكم . ماذا كانت النتيجة ؟ فقد

اليهود كل شئ ..

وصاح صوت أسفل الحسن :

- يا كنانة ابن الربيع .. انتهت المعركة واستسلم الرجال ..

المسلمون دخلوا المدينة .. لم يعد هناك أمل فى الهرب .. لا شئ

سوى الاستسلام .. لقد سقطت خير .

تمت صفية :

- الحمد لله .

- وارتمى كنانة على الأرض شاحباً . . ساهماً لا ينطق بكلمة .  
وأخذت زينب بنت الحارث تقهقه كمن أصيبت بلوثة مفاجئة .  
- انتظر يا كنانة ستهبطون السلم أذلاء، وسيوف محمد تهوى  
على رقابكم، كما حدث يوم بنى قريظة، وكنزك الدفين سيظل  
مخبوءاً إلى الأبد . . أنا أعرفك ستقدم عنقك للسياف لا تفرط في  
ذهبك .  
ثم هبت زينب واقفة، أطلت من إحدى النوافذ وصاحت :  
- إلى بفهد: أريده على عجل .  
أتى فهد غارقاً في الرعب والعرق والحيرة .  
- مولاتى .  
- فهد أنت حر منذ الآن .  
- آه . . لقد فات الأوان . . ليس هنا أحد يملك شيئاً اسمه  
الحرية، كلنا أصبحنا أسارى في يد المسلمين .  
صرخت بحدة :  
- أنت عبدى، وقد جدت عليك بالعتق، أنت حر .  
- الشكر لمولاتى .  
- لم أعد مولاتك أيها الغيبى .  
ثم قالت :  
- اذهب، وعد في المساء . . ليس هذا أمراً، ولكنه رجاء .

- سأتى ان بقيت حياً حتى المساء .

- وساد الجدل واللغط، نفس المأساة القديمة، نسوة يعولن، وأطفال يصرخون، ورجال يرتمون مهدودى القوى، وكلمات ندم واعتراف بالخطأ والخيانة، واستسلام كامل للمصير، رجال يذهبون إلى محمد يتفاوضون ويذرفون الدمع ويرددون عبارات الندم والاسترحام، هل من الضروري أن يتعرضوا دائماً لمأساة؟ هل من الضروري أن يخوضوا فى طريق الشوك والغدر والمكيدة؟ ودخل عليهم الحجاج بن علاط تاجر اليهود ونادى بأعلى صوته:

- يا معشر اليهود: لقد عقدنا اتفاقاً مع محمد على أن يحقن دماءنا، ويحفظ علينا حياتنا. . وأن نبقى على أرضنا على أن يكون له نصف التمر فى كل عام.

وساد فرح غامر، وأشرقت بعض الوجوه بابتسامات عريضة.

هتفت زينب:

- يا للكارثة أتتسمون للذل والهزيمة؟

قال لها الحجاج فى ضيق:

- هل هناك ما يمكن عمله أحسن من ذلك؟

- قالت: أجل. .

- ماذا؟

- الموت يا حجاج .
- قال في سخرية :
- هذه قضية يحكم فيها كل فرد حكماً ذاتياً ، من أراد أن يموت فليحمل سيفه ولينزل إلى الميدان .
- ولم لا تفعل ذلك ؟
- ظللت أناضل حتى آخر رمق ، برغم إيماني بعدم جدوى المعركة منذ البداية ، أنتم تعرفون ، وأنا الآن أعلنت إسلامي .
- ران على الجميع صمت عميق قالت زينب وهي تهقه في جنون .
- الآن فهمت . . لقد لاحت منبتك قبل أن تأتي إلى هنا .
- إذهب يا حجاج بن علاط ، رافقتك اللعنة حياً وميتاً .
- دار الحجاج بنظراته عبر الساحة الفسيحة قال :
- كنانة بن الربيع .
- ماذا ؟
- محمد يريدك .
- أنا ؟
- أجل .
- إنه الموت يا حجاج ، أعرف أنني أحمل أوزاراً من بني النضير وبني قريظة وخير ، لكن الاتفاق لم يستثن أحداً .



قال الحجاج:

- إما أن تسلم الكنز أو الموت، أنسيت أنك كنت تهدد المسلمين بهذا الكنز، وإنك استغللته في التحريض وإعداد السلاح وحشد الجند؟ أنت لم تخف ذلك، بل كنت تعلنه صراحة أمام المسلمين وأنت راحل عن أرض بنى النضير.

قال كنانة في مسكنة:

- أقسم لم يعد لدى كنز.

- هذا أمر بينك وبين محمد.

وخرج كنانة بن الربيع بين همهمات زينب وسخريتها، كان يمضى مطأطئ الرأس مرتاع الفؤاد، وعلى الرغم من اضطراب صفية، وإشفاقها عليه، إلا أنها لم تستطع أن تبعد ذلك الخاطر الذى ورد على ذهنها.. آه.. تلك الرؤيا الغريبة، ذلك القمر الوافد من يثرب، القمر الذى يشق الظلام، ويميل نحوها حتى يستقر فى حجرها، وتمت فى شروودون أن تدرى.

- جاء القمر.

قالت زينب فى سخرية:

- أى قمر يا أختاه؟

- ذلك الذى يشق الظلام.

- هاها . . أنت الأخرى يا صفية ستصابين بلوثة جنون .  
إنها بداية الحزن على زوجك التعس . . لماذا لم تسرعى معه  
بالهرب؟ ستقضى باقى حياتك بلا قمر، ستبقى فى ظلام دامس .  
- لكنى أراه يا زينب .

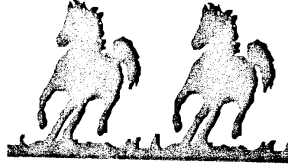
أمسكت زينب بكتفى صفية وأخذت تهزها فى عنف :  
- أفيق . ليس زوجك هو آخر الضحايا ولا أولهم ، مات  
سلام ، ومات أبوك ، ومات كعب بن الأشرف ، وابن أبى الحقيق  
وكعب بن أسد ، ودفعنا ثمن حماقاتنا غالياً . كلهن ثكالى . . أنا  
وأنت والنسوة كلهن . . ومع ذلك قد يعود إليك زوجك سالماً .  
تمت صفية فى إصرار : القمر . . القمر .  
ثم انفجرت باكياً :

أنكر كنانة حيازته لأى كنز ، وأبدى استعداداه للموت إن ثبت  
كذبه وشهد عدد من جنود المسلمين بأنهم رأوا كنانة منعزلاً فى مكان  
مهجور يحاول تسوية أرضه ، فذهبوا وبحثوا هناك فوجدوا جزءاً  
من الكنز .

- يا كنانة . . لقد حكمت على نفسك بالموت . . أجيء عدة  
حروب ، وشاركت فى عديد من المؤامرات ، ومولت المعتدين

بمالك، ومازلت مصرأ على إخفاء ذهبك لتهدد السلام، وتفتح  
الثغرات لفتن جديدة لقد استعصى أمرك يا كنانة على كل علاج أنت  
محكوم عليك بالموت.

وقتل كنانة بن الربيع جزاء بغيه وعدوانه وإصراره على العناد  
وبكت صفية بكاءً مرأً.



### الفصل الرابع عشر

«ويحيى - ويحيى - جلل العار حياتى، والذل يهوم على رأسى، وفى عينى، وأنا بالأمس زينب بنت الحارث، زوجة سلام بن مشكم. لكنى الآن إحدى السبايا.. حلمت بأن تركع عائشة تحت قدمى، ويأتى السبايا من نساء الرسول يذلكن أقدامى بالطيب ويمشطن شعرى، ويحركن المراوح أمام وجهى، ويتلقن من ورائى فتات الموائد.. كيف انعكست الآية؟؟ زينب بنت الحارث ستذهب إلى بيت محمد لتخدم نساءه، تمرغ شرفها العريق فى الذل والوحل!! وامصبيته!! والخسيس بن الخسيس «فهد» ما إن وهبته الحرية، ومنحته قلبى وجسدى حتى تمرد واندفع فى نذالة ليعلن إسلامه، وينخرط فى سلك المسلمين.. واكرباه!! تشبثت بأذيال القدر.. ذرفت الدموع.. قلت له أعطيتك الحرية لتكون لى وحدى لتخفف من أسى الزمان وغدره.. فلنهرب.. ولنعيش بعيداً عن العيون، سأجعل من خدى لك وطاء.. وأنت العبد الحقير.. لكنه زمجر قائلاً: لن أبيع آخرتى بدينارى سوف أركض إلى الله» فلتركض يا ابن اللثيمة حتى تكسر رجلك، ويدمى الشوك قدميك.. اليأس يطوق عنقى، ويغلل فكبرى، ويحرقنى بسيياط الندم.. ما قيمة الحياة بعد ذلك؟؟»

مات الرجال .. استراحوا .. لا عناء ولا ندم ولا شقاء .. ما أروع الموت من علاج!! لكن .. أموت بلا ثمن؟؟ والقسم؟؟  
 ثأرك يا سلام بن مشكم .. رب امرأة ضعيفة مثلى تحقق ما عجز عنه الجبابرة .. أحياناً تكون الخديعة أقوى من بطولة الأبطال ..

أحداث صغيرة قد تغير مجرى التاريخ والحياة .. أنا آخر وأضعف سهم فى كنانة خير .. يا لثارات خير .. وتلفتت زينب حولها، النساء يقمن سبايا خاشعات، وفى العيون دموع، والرجال قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وينتظرون.

وصاحت زينب بأعلى صوتها:

- «يا محمد .. أمنت بك نيباً .. وبالله رباً وبالإسلام ديناً ..

كيف حدث ذلك؟؟ نساء خير ينظرن فى دهشة، والرجال ترتسم الحيرة فى وجوههم والمسلمون يطربون لكل من يفتح الله قلبه لنور الإيمان، وليس غريباً أن تهتدى امرأة إلى الطريق القويم، ولو كانت زوجة سلام بن مشكم .. بل إن المتطرفين فى عدائهم، قد يتطفرون فى صداقتهم إذا مالوا إلى جانب الحق ..

ألم يذهب عمر بن الخطاب ذات يوم لقتل محمد فإذا به ينشرح صدره للحق، ويؤمن بدعوة الله؟؟

وهمست فى أذنها امرأة يهودية عنيدة.

- «وزوجك وأهلك الذين قتلهم المسلمون» ..

قالت فى ثقة:

- «لهم منى الوفاء والدموع وليس لهم الحق فى إخضاعى لضلالهم وفكرهم» ..
- لشدّ ما تغيرت يا زينب!!
- «الأحداث الكبرى تهدم وتبنى» ..
- لا تفلسفى الضعف والهوان» ..
- «أنت متسربة .. قصيرة النظر» ..
- «لكنى أؤمن بالوفاء» ..
- «وأنا أيضاً» ..
- هذا زيف ..
- «لكل طريقه يا أختاه» ..

وأخذت زينب تروح وتجيء فى حماس، كانت تتصرف فى قوة وتحد، وتعلن أمام بنى قومها أن الإسلام هو طريق الحق، وأن خطأ السابقين لا يلزمها بالزيف والانحراف كل إنسان له حق التفكير الحر والاختيار، وقد اختارت، ألم يعف محمد عن مجرمى الحرب؟ ألم يشفق بهم، ويجنبهم شقاء الطرد والتهب فى أعماق الصحراء حيث الفقر والجذب والجوع والظما؟؟

- «الحق أقول يا بنى خير، إن لنا رصيذاً من الخطايا والمخازى لا ينسى .. وزوجى سلام أو الخاطئين .. إن دمه لم يجف بعد، لكن الحقيقة تفرض نفسها يجب أن نحمل ما بقى من تراث

وأرواح.. ألم يرد إليكم محمد صحائف التوراة التي استولى عليها؟؟ لو قطع رقابتنا لما لامه أحد.. ومحمد يدعو إلى وحدانية الله، والإيمان بجميع الرسل والأنبياء، والكتب المنزلة.. لا يعرف عصبية ولا حقداً. ما وجدت في قرآنه طيشاً ولا زيفاً ولا اختراعاً..

وتهايمست النسوة في خبير وتغامزن، وهن يرون زينب تعد وليمة لمحمد، سبحان مغير الأحوال تلك التي كانت تعقد المؤامرات في بيتها، وتحرض على القتال، وتبيع نفسها للشيطان، أصبحت من المؤمنات بمحمد.

وكان الرسول حريصاً على التخفيف من أثر النكبة على اليهود يريد الاحسان إليهم، ونزع ما في صدورهم من غل، التزاماً بمبدأ الرحمة، وفتح طريق الهداية أمامهم وعندما أولت له زينب لم يمانع، فأحضرت شاه حسن طهيتها، وتحلق حولها الرسول، وبعض صحابته. قال أحد الصحاب وهو «بشر بن البراء» في مرج:

- «إننى لا أستطيع كبح جماح نفسى، الجوع شديد، والجسد مرهق، والمعدة خاوية، ما كل مرة نجد وليمة دسمة كهذه.. وأنا لا أطيق الصبر».

أمسك بشر ذراع الشاه بيده، وانقض عليها بأسنانه، فاستطعمها وازدردتها في ملح البصر، وهو يتمتم.

- «يا له من طعام رائع لذيذ!!»

أما الرسول فقد سمي باسم الله، وأمسك بالذراع الثانية للشاه، ولاك منها مضغة، فبدأ الاشتزاز والضيق على وجهه، وسرعان ما لفظ المضغة، وتلفت نحو أصحابه قائلاً:

- «إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم».

فكف الجميع أيديهم عن الطعام وهربوا أحدهم لاجتماع زينب، وقدمت زينب وهي ترتجف، وقد شحب وجهها. واضطربت خطواتها وزاغت هظراتها. قال قائل:

- لقد دسست السم في الطعام يا زينب؟

وقال آخر: - «تريدان قتل رسول الله؟؟»

قالت والدموع تفرق خديها: «حاشا وكلا»..

وفجأة نهض بشر بن البراء من مكانه، وقد تندى وجهه الشاحب بالعرق، وأخذ يتقيأ كل ما في جوفه.

قال صحابي: «يا بنت الجريمة، انظري بشر».

طأطأت رأسها، ولم يكن هناك جدوى من الإنكار، ومادام أمرها قد انكشف، فلتفسر الأمور بطريقتها الماكرة، فالتجهمت صوب الرسول وقالت له:

- «لقد بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت «إن كان

ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيخبره الله».

وصاح صائح:



- «مات بشر بن البراء مسموماً يا رسول الله».

تجمع الصحابة ومعهم رسول الله - حول بشر، وأخذوا ينضحون جبينه بالماء، ويدعون الله من أعماقهم أن يكتب له النجاة.

وتتم أحد الرجال: «مات بشر يا رسول الله».

تدحرج دمة من عين الرسول ونظر إلى الجسد المسجى في ألم وتتم ببضع دعوات، وجاء صوت عمر بن الخطاب يقول:

- «ولكم في القصص حياة يا أولى الألباب» صدق الله - العظيم. إن العدل يقتضى أن تقتل زينب جزاء صنيعها.

واضطرب اليهود لهول الحادث، وبدأ السخط في أعينهم وفي همساتهم، وأخذت التعليقات، تنطلق هنا وهناك «ولو مات محمد لقتلنا عن آخرنا» دائماً نقابل الإحسان بالإساءة، فكيف يثق بنا المسلمون؟؟ إلى الجحيم. كانت زينب بقية الخطيئة في وكر الخيانة. ماذا جنينا غير العار والهوان؟؟

وصاح الحجاج بن علاط التاجر اليهودي:

- «يا معشر اليهود. اثبتوا ولو مرة واحدة في حياتكم إنكم أهل للعفو والإحسان من أراد أن يسلم فيسلم، ومن أراد أن يبقى على دينه، فليبق معزراً مكرماً. أما حماقاتكم فلن تجر عليكم سوى الفناء والوبال».

وسيقت زينب إلى الموت.

- وكم كانت دهشتها . حينما سمعت صوتاً يهتف من خلفها :
- «إلى الجحيم يا داعرة» .
- التفتت إلى صاحب الصوت ، والذهول يخيم على نظراتها وملامح وجهها وقالت :
- «أنت يا فهد؟؟ إنه أبشع وداع» . .
- «ليس فى قلبك الأسود ثغرة تطلين منها على النور» .
- : «لشدّ ما أنا نادمة!!»
- «لم يعد يصدقك أحد» .
- «والذكريات يا فهد» . .
- «ملعونة أيامك السوداء» .
- «كانت جميلة» .
- «تبشّين للعهد وأنت على أبواب الجحيم» .
- «فقدت كل أمل . فليصرخ الشيطان فى أعماقى» .
- «كنت دائماً تبحثين عن الفناء» .
- بل «الحياة» .
- كذبت» .
- «المجد والماضى وصحائف الخلود . والثأر» .
- «تحاولين أن تجعلى من نفسك شهيدة» .

وضعت أصابعها فى أذنيها، ومضت مسرعة فى الطريق وهى تقول: - «لا أريد أن أسمع شيئاً. ما أروع الاختباء والنسيان فى أحضان الموت اللعين».

وبعد فترة قصيرة هتف الحجاج بن علاط بأعلى صوته.

. . هذا جزاء الخيانة.

- «وتمتم أحد اليهود الطاعنين فى السن.

- «قالها يهودى - وهى حق».



### الفصل الخامس عشر

موكب السبايا يسير . . إنه موكب خاشع حزين وعلى رأس الموكب صفية ابنة حبي بن أخطب، أبوها عدو لدود للإسلام والمسلمين، ومات بسيف القصاص يوم «بنى قريظة» ومحمد يذكر عداءه، ويذكر أن مؤامراته كادت تفتك بالمسلمين يوم «الأحزاب»، إن صفية أيضاً تذكر ذلك جيداً وهي تسير في الموكب الحزين، لو حقد عليها المسلمون جميعاً لكانوا على حق، إنه لشئ رهيب أن تصبح صفية سبية من السبايا . . بالتصرفات الأقدار، امرأة تناسلت من نسل «هارون» النبي . . سليله الأنبياء . . تصبح ضمن السبايا؟ وهي ذات فضل وجمال، يحبها أهل خير حباً ملك عليهم شغاف قلوبهم، بل إن مصائرهم التعسة قد تضاءلت إلى جانب مصيرها .

وتمت إحدى السبايا: - «ماكان لصفية أن تنزل هذا المنزل الذليل» وردت جارتها:

- قضاء وقدر . . وملحمة كتبها الله على بني اسرائيل .

- لماذا لا يتقدم أحد اليهود الذين أسلموا إلى محمد بطلب الصفح عنها؟

- هذا أمر عسير . . فهي بنت «حبي» وزوجة «كنانة» ثم إن الثقة بها تكون ضعيفة . . وهل يوثق فيمن قتل المسلمون أباهما وزوجها؟

ونظر المسلمون وعلى رأسهم النبي إلى موكب السبايا، قال عمر: من هذه التي تسير في المقدمة؟

قال صحابي: - تلك هي صفية ابنة حبي بن أخطب.

وتهاشم المسلمون فيما بينهم، إنها حسنة السمعة، أصيلة المنبت برغم ضراوة أبيها، وحقد زوجها، طيبة المعشر، جميلة السمة، وعيون اليهود تحيطها بالرعاية والحب والتقدير، لكأنما هم مشفقون على مصيرها.

ومال أحد المسلمين على أذن الرسول قائلاً:

- يا رسول الله، إن صفية لا تصلح إلا لك.

وفكر الرسول، أيمكن أن يصفو قلب صفية، وينسى الأحقاد القديمة، والدماء التي أريقَت، أم أنها ستفكر في الثأر لأبيها وزوجها؟ ثم ماذا يكون أثر هذا التصرف على اليهود أنفسهم في خير؟ هل سيشعرون أن هذا التصرف قد داوى جراحهم، وخفف من آلامهم ومحا الكثير مما ترسب في أذهانهم؟

واقترَب منها الرسول وقال:

- لم يزل أبوك من أشد الناس عداوة لي حتى قتله الله..

رفعت عينين صافيتين إلى الرسول وقالت:

- يا رسول الله.. إن الله يقول في كتابه ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

«ابتسم الرسول، لكأنما وقع هذا الكلام من نفسه موقعاً حسناً، إن صفة تحاول أن تعلن عن تبرئتها من وزر أبيها، بل واعترافها بإثمه، وتبدي أمام الرسول علمها بالقانون الإلهي الذي نزل على يديه» «ولا تزر وازرة وزر أخرى».

وقال الرسول في قوة يقين ورجاحة عقل، وفساحة صدر:

- اختارى..

فإن اخترت الإسلام أمسكت لنفسى، وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقى بنومك.

قالت صفة وقد أشرفت «لأصحابها للحب والإيمان:

- يا رسول الله، لقد هويت الإسلام، وصدقت بك قبل أن تدعوني حيث صرت إلى رحلك، ومالى فى اليهودية أرب؟ ومالى فيها ولد ولا أخ، وخيرتنى بين الكفر والإسلام. والله ورسوله أحب إلى من العتق والرجوع إلى قومي.

وسرعان ما أعتقها الرسول وتزوجها.

وعلت البسمة أفواه الرجال والنساء فى خير، وهتف المسلمون مكبرين، ونزل النبأ برداً وسلاماً على قلوب المحاربين الذين أنهكتهم الجراح، وأمضهم الصراع الطويل ونامت حماة الثأر إلى مـ.

وسار موكب العروس من خير إلى «دومة الجندل» قرب المدينة

حيث سيتم اللقاء . . بين محمد وصفية . . والناقة تسير وصفية بالهودج . . تحلم بلقاء النبي العظيم . . أهي في حلم أم في يقظة، إنها لا تكاد تصدق ما يجري، الأحداث سريعة متلاحقة مات «كنانة بن الربيع» ذلك الذي لم تشعر بالحب نحوه في يوم من الأيام، والتي كانت تستمع إلى آرائه الحاقدة الغريبة بمزيد من الضيق والحنق، ويزداد بها الضيق كلما تكلم عن الذهب . . لقد وعدا ذات يوم بأن يأتيها برأس محمد هدية . . وهي اليوم تتلقى محمد هدية من السماء . . والبسمة على شفتيه، ونور الإيمان يتلألأ على جبينه، وأريج النبوة يفوح من أردانه، مات كنانة ملعوناً. لقد بكت عليه لا بدافع الحب . . لكنه الواجب أو لعله العطف على رجل يموت . . أي رجل . . لو رأته صفة غريباً مسجى على قارعة الطريق لانهمرت الدموع من عينيها، مات كنانة . . ومات معه الحقد والحماقة والغدر، والظل الثقيل . . آه . . بالأمس البعيد مات أبوها . . لقد سعى إلى حتفه بنفسه . . اختار . . وحتى في لحظات الفراق الأبدى لم يتنازل عن رأى ارتأه . . فليتحمل نتيجة عمله، لشد ما تألمت وبكت على الرغم من ذلك، كانت تحبه حقيقة: ومازالت، لكن هذا لا يعنى أنها كانت تفره على تصرفاته وأفكاره.

وبعد وقت قصير ستزف إلى أعظم إنسان في الوجود . . تلك هي الحقيقة . . قال لها:

- اختارى . . يا لها من كلمة رائعة! وكان في إمكان محمد أن

يأمرنى فأطيع، فأنا غنيمة من الغنائم، وله الحق أن يفعل بى ما يشاء.. لكنه أبى أن يسوقنى سوقاً إلى حريمه.. إنه لا يقتنص الحب، لا يجعل منه مهمة تؤدي، وواجباً مفروضاً على المنهزمين قال لى: اختارى يا صفيّة وخرجت من بين شفّتيه أعذب ما تكون وأقوى ما تكون، وأنبل ما تكون، وأنا اخترتك يا قمرى المنير، عشت لىالى وأياماً طويلة أحلم بموكبك الأبهى، وأنت تشق الظلمات وتهتك أستار الحجب، وتند إلى خير.. كانت رؤياى باليقين أشبه.. أكانت أحلام يقظة فتجسدت فى المنام، ثم تحولت إلى حقيقة؟ يا قلبى الطموح، لم تستسلم لليأس فى يوم من الأيام، كنت كل مساء أجلس فى الظلام الدامس، أناجى النجوم وأهرب ممن حولى، وأبحث عن نورك.. كل ما حولى كان يوحى بالشك والمقت والحيرة.. وكلما اشتد حقدهم عليك.. ثارت ثائرتهم، ازدادت بك إيماناً، وأيقنت أنك صادق أمين، ودق قلبى لأفراح النبوة حينما سمعت بمقدمك.. كنت أجلس فى الحصن المنيع، منطوية على نفسى، مغمضة العينين، أتخيلك قادماً بكل محياك شرف الدنيا ومجد الآخرة، وصدق الحقيقة.. وأنا ممن يبحثون عن الحقيقة، وازداد بحثى عنها عندما مات أبى، وتخفيت وراء ملابس الأحران والحداد كى أنفرد بنفسى، وأبحث عنها.. أنت ينبوع الحقيقة يا محمد.

- آه.. لكم تقلبت فى فراش النعم والأبهة، ودرجت بين آباء ملوك.. حولى الخدم والحشم، وتحت أقدامى الذهب.. أمر



فأطاع، ولم أستشعر السعادة والرضى إلا عندما رأيتك يا نور  
القلوب وربيعها.. آه.. أحبيتك وأنت وحدك في مكة تدعو إلى  
الله، وتتحمل العناء والعذاب، وترفض المساومات، وأجبتك  
وأنت تهاجر واثقاً بنصر الله. وأجبتك وأنت تخوض المعارك  
القاسية، يا أشرف محارب، وأنت تقاوم الجموع وعلى رأسهم أبي  
وتحطم كبرياء المغرورين والموتورين وتخرج من كل ملحمة، قوى  
البأس، مشرق الوجه، تنفض عن جبينك الطاهر التراب والدم  
الغالي.. تكبر للصلاة.. أنت لم تقتل بنى قريظة.. هم قتلوا  
أنفسهم.. قتلهم أبي، أنت لم تقتل اليهود، بل قضيت على رذائل  
الإنسانية، ودمرت الحقد والدس والمكيده، فالشعابين لا تترك البشر  
ينعمون إذا ما انطلقت من جحورها، يا واهب الأفراح لقلبي  
التعس، ومشعل فكرى بنور الحقيقة، يا نبع الحب والنظام والأمل،  
يا فجر حياتنا الجديدة.

وأفاقت صفية من أحلامها على صوت الرجل الذى يأخذ  
بعنان الناقة وهو يقول: - هنا دومة الجندل.

وتمت صفية وقد دق قلبها. وتوردت وجنتاها.

- وأين القمر؟

ومضت ليلة من العمر لا تنس.. وهى من روعة تحقيق الحلم،  
كأنها فى حلم.. وافتر ثغر السماء عن شمس مضيئة دافئة، ونظر  
الرسول إلى الكدمة الزرقاء أسفل عينيها وقال:

- ما هذا؟

- إنه حادث قديم يا رسول الله . أثر باق يذكرني بحلم رأيته ذات ليلة . . رأيت في المنام أن قمراً أقبل من يثرب ودخل في حجرى ، ولما استيقظت من نومى تولتني دهشة ، ولم أجد إلا أن أصرح بها زوجى كنانة بن الربيع الذى ما أن قصصت عليه الرؤيا حتى اربد وجهه وعبست ملامحه ، وضرب وجهى وهو يقول : كأنك تخين أن تكونى تحت هذا الملك الذى يأتى من المدينة . . ولقد صدقت الرؤيا يا رسول الله ، وإنى لأحمل منها هذا الأثر الذى رأيته .

وتحرك ركب المتصرين إلى المدينة .

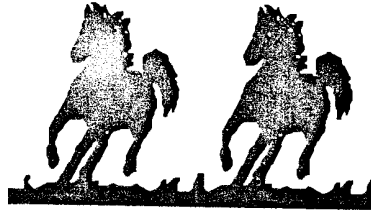
وحظى أمر صفية باهتمام بالغ ، بين نسوة المهاجرين والأنصار ونسوة الرسول ، وتقاطرن صوب بيت الرسول ، محجبات مسدلات النقاب على وجوههن . . ومن غير صفية ذات الجمال والفضل والتاريخ العريض يمكن أن تحظى بهذا الاهتمام البالغ؟ أبوها شغل العرب بحيله ودهائه ، ومصرعه كان حكاية تروى فى المجالس ، وزوجها صاحب الكنز والتهديدات المعروفة وقومها فى خيبر كانوا يشكلون خطراً دائماً ضد الإسلام والمسلمين . . إن صفية رمز لقصة مثيرة ، ونهاية لمأساة كبرى ، ومال الرسول على عائشة ، وقد اختفت وراء نقابها متوهمة أن الرسول لن يعرفها .

وقال : - كيف رأيته يا عائشة :

لم تستطع عائشة - كامرأة - أن تخفى معالم غيرتها، أمام مارانه من جمال جذاب، وشخصية قوية أخاذة وعراقة تبدو على ملامحها وكلماتها وتحركاتها، وأمام انشغال الناس بأمرها، وهزت عائشة كتفيها وقالت: - رأيت يهودية . .

قال الرسول في رفق: لا تقولى هذا يا عائشة، فإنها قد أسلمت فحسن إسلامها .

وهل بعد الإسلام شىء يستطيع أن يمحو أدران الماضى، ويلغى فوارق الجنس واللون والحسب؟



### الفصل السادس عشر

ساور «الحجاج» بن علاط.. التاجر اليهودى بخيبر القلق والتوجس: بعد انتصار المسلمين وإعلانه إسلامه، وكيف لا يتنباه القلق، وهو صاحب تجارات واسعة، وله أموال كثيرة فى مكة لو علم أهل مكة بإسلامه، فلسوف يحقدون عليه، ويمنعون عنه ماله انتقاماً منه، ولم يغب هذا الموضوع عن ذهن «الحجاج» منذ البداية، فقد فكر فيه طويلاً وعرض الأمر على الرسول، واستأذن الرسول فى أن يلجأ لبعض الحيل التى قد تكلفه نوعاً من الكذب حتى ينال حقه، وأسرع «ابن علاط» إلى مكة، فوجدها تنتظر على أحر من الجمر، متلهفة لأنباء حرب محمد مع يهود خيبر. وحينما وقعت أعينهم عليه هرولوا نحوه، وأخذت أسلحتهم تنصب فى أذنيه كثيرة مختلفة.

وابتسم الحجاج وقال:

- أريد مالى أولاً.. لسوف أرف إليكم بشرى ما حلمتم بها قط..

قال أحدهم:

- لئن كانت بشرى كما تزعم فأنا أمين برد كل مالك.

- إذن فاسمعوا. فاتحوا أذانكم جيداً.. إنها أخبار سوف

تهزكم هزاً شديداً.

هدرت أصواتهم مختلطة متعطشة

- قل ولا تخف شيئاً.

تنهد بن علاط وقال:

- يالها من حرب. مات فيها خلق كثير، وسالت الدماء  
أنهاراً. فقدنا عدداً كبيراً من خيرة رجالنا. . ملحمة لا تنس أبداً  
الدهر. . وأخيراً صاحوا بصوت واحد:  
- ماذا؟

- انهزم المسلمون وولوا الأدبار، وأسلموا سيقانهم للريح،  
وفتن أصحاب محمد، وتبرؤا من دينهم. . لقد كشفت الهزيمة ما  
كانوا فيه من وهم وخداع. . أيها الرجال. . لم نعد من مطاردتهم  
إلا بعد أن أخذنا عدداً كبيراً من الأسرى، ومن بين هؤلاء الأسرى  
محمد.

صاحوا وهم لا يكادون يصدقون:

- محمد؟

- أجل. . محمد بن عبد الله. . إنه سجين في خير الآن.  
ويثرب لم تحرك ساكناً. لقد انطوت على جراحها وأخذت  
تبكي على قتلها، ولن تقوم لها قومة بعد الآن، ولو فكرت في  
غزونا ثانية فلسوف تقتل محمداً، ومن معه من الأسرى، وهذا ما  
أخطرناهم به.

تصايح الرجال وأخذوا يهتفون فرحاً وشماتة. لكن بعضهم  
أطرق كسيف البال، دامع القلب، إن الحدث كبير لا يصدق،  
وسرعان ما انتقل من شارع إلى شارع، ومن بيت إلى بيت، وتوافد  
الرجال من كل صوب يشنفون آذانهم باستعادة القصة من الحجاج-  
بن علاط. وصاح فيهم آخر الأمر:

- لقد مللت تكرار السرد. . أريد مالى.

وسرعان ما احضروا له ماله، بل اضافوا له بعض الهدايا للبشرى السعيدة، ووقفت هند ترقص فى بيتها، وكأنها فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها، وقالت وجهها ينطق بشراً:

- الرهان يا أبا سفيان .

ضرب أبو سفيان كفاً بكف وقال :

- هذا أمر عجيب، إننى لا أكاد أصدق، أنا معك فى أن رجال خيبر شديداً المراس، أقوياء الشكيمة، لكن ليس من السهولة أن يسقط محمد هذه السقطة .

قالت فى غيظ :

- أو عندك شك فى ما قاله ابن علاط؟ إنه قادم من المعركة وعلى كاهله جراحه . دائماً تحاول يا أبا سفيان أن تفسد على متعتى، وأنا فى أوج سرورى وهنائى . . ما أعظمك يا يوم خيبر . فشلت مكة، وانتصرت خيبر . لسوف يعزى الفضل كل الفضل لليهود أبد الدهر - قلت لك انطلق لتشارك فى اجتناء النصر العظيم قبل فوات الأوان، لكنك تقاعست . خفت بأس محمد، وقلت بيننا وبينه عهد . إنك لا تعرف متى تثب ومتى تفر - وصمتت برهة ثم عادت تقول :

- الرهان يا أبا حنظلة .

وهرول عكرمة بن أبى جهل إلى بيت خالد بن الوليد . وقال :

- جئتكم بما لم يجتكم به بشر قبلى .

- خيراً .

- هزم محمد فى خيبر، ووقع فى يد اليهود أسيراً .

شحب وجه خالد، وهب واقفاً وقال:

- ماذا؟؟

- مقالة قالها الحجاج بن علاط تاجر خيبر اليهودي . شارك في المعركة، وروى لنا تفاصيلها.

- لقد سمعنا بموت سلام بن مشكم، والحارث بن أبي زنب وغيرهم من رجالات اليهود في أيام المعركة الأولى.

- أجل يا خالد . مات خلق كثير . لكن النصر كان لخيبر.

وران الصمت على خالد، بينما استطرد عكرمة يروي التفاصيل نقلاً عن ابن علاط، وأخيراً قال خالد:

- يبدو أن في الأمر خدعة.

- إنك تهول في الأمر . ولماذا الخدعة؟

- ألا يجوز أن يكون محمد قد انتصر، وأن ابن علاط أصبح من أتباعه . وأن محمداً قد أرسله لكي يخدعنا، وننصرف إلى اللهو والأفراح وقصائد الشعر، ثم نتلفت فنجد محمداً قد حاصر «مكة» فجأة وأخذها على حين غرة؟

وأخذ عكرمة يقهقه حتى كان يستلقى على قفاه:

ليس محمد من السداجة بحيث يتصور الآن أنه قادر على غزو مكة إن صح ظنك.

ثم أخذ عكرمة يلوح بيده قائلاً:

- الرهان . أولاً.

- لابد أن أتأكد من ذلك بنفسى.

- لسوف يخرج من مكة جمع غفير، وسيشدون الرحال إلى

خيبر ليروا محمد السجين .

إنها فرصة العمر . إننى لا أكاد تصوره حبساً وحيداً وجموعاً تدور حوله والكلمات الجارحة ، والسخریات المرة تنهال عليه ، بل وما هو أكثر من ذلك ، آه ، انتهى محمد وانتهدت أكبر خدعة عاشتها العرب فى تاريخها الطويل .

وتتم خالداً ، - وسيعود بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير . وسترضخ الجزيرة لسلطان اليهود المنتصرين ، وسيفرضون علينا الذل والعار أبداً الأبدین . ألم تفكر فى ذلك يا عكرمة ؟

قال عكرمة ، والفرحة الغامرة تلمع فى عينيه .

- لم أكن أفكر فى غير شىء واحد .

- ما هو يا عكرمة ؟

- القضاء على محمد بأية وسيلة . أية وسيلة .

- أيها الأبله المسكين . لقد كنت أفضل أن ينتصر علينا محمد أو تنتصر عليه ، أما أن يكون النصر لليهود ، فهذه كارثة لن تبدو آثارها إلا فى قابل الأيام . لسوف نلغ فى بحار من الدماء . وستزداد الفتن والاضطرابات وسيفرض اليهود على العرب الخراب والدمار والصراع الدموى الدائم ، حتى لا يخرج لهم من جديد رجل كمحمد ؟؟

وفهقه عكرمة ثانية وقال مازحاً :

- اتعتقد أن جبريل يستطيع الآن أن يخترق أسوار السجن ، ويغافل

الحراس ، ويفتح الأبواب الموصدة ، كى يذهب لوحى جديد لمحمد ؟!

لم يشاركه خالد الضحك والمزاح ، ولكنه قال :



- ليس لقدرة الله حدود .
- خالد أوتشك؟؟
- كل الشك .
- لكن محمد أسير .
- إن كان كذلك ، فلسوف يصحون ذات يوم ولن يجدوه
- كيف؟؟
- إنه قادر على اقناع أعنى السجانين بمنطقه .
- لكنهم من وقحاء اليهود .
- إن الأمر كله يبدو غريباً غاية الغرابة .
- وبلغت الأنباء الخطيرة مسامع «العباس» عم الرسول في مكة ،
- ولم يكن مسلماً ومع ذلك فقد توترت أعصابه ، وارتعشت عضلات
- جسده واجتاحه غم شديد ، وتمتم : لو كان لى قوة أزحف بها صوب
- خيبر لتحرير محمد ، وتأديب اليهود ، لما تقاعست لحظة أهـ .
- وزحف المساء فتستر العباس بالظلمة ، وانفلت إلى حيث يأوى
- «الحجاج بن علاط» ولفت يمينه ويسرة قبل أن يدخل عليه ، وعندما
- لقيه ، قال وقلبه يخفق :
- يا حجاج بن علاط ، أيها الرجل الطيب . أخبرنى الخبر لا
- تخفى شيئاً ولو كان محزناً . أنت تعلم أن محمداً ابن أخى .
- ابتسم الحجاج بن علاط وقال :
- أنت فى الذؤابة من الشرف . أتعدنى أن تخفى أمرى إذا
- صدقتك الحديث؟؟
- أقسم على ذلك ، ولو ضحيت بحياتى .

قال الحجاج: ابن أخيك بخير. وقد دانت له خير، وانتهى سلطان اليهود إلى الأبد. وأنا تابعته على دينه ولقد لجأت لهذه الحيلة حتى أجمع مالى من رجال مكة..  
وثب العباس إلى الحجاج، وأمطر رأسه ووجهه وكتفه بالقبلات.

ومتتم بن علاط:

- أتخيه لهذه الدرجة؟؟

ولما لم يجب قال:

- ولماذا لا تؤمن بدعوته إذن؟؟

- هذا أمر آخر يا ابن علاط.

وأخذ الحجاج يضرب كفاً بكف ويقول:

- إن أمركم لجد عجيب. أنا لا أعرف هل مكة تحب محمداً أم تكرهه، كنت أرى الدموع تمتزج بالابتسامات، وأنا أروى مقالاتي، والفرحة متوشحة بالخزن هل تحبونه أم تكرهونه؟؟  
أريد أن أعرف.

وانصرف العباس سعيداً، لا تكاد الدنيا أن تسع فرحته.

وفى الصباح لبس العباس أفخر ثيابه وذهب إلى البيت الحرام يطوف به، وقال له أحد الرجال:

- إنك تتجمل بالصبر، وتلقى الكارثة فى ابن أخيك بالتجمل والهدوء، وهذا شأن الرجال الشرفاء الأقوياء. إن المصاب فادح - لكن كان لابد أن تكون هذه هى نهايته.

ابتسم العباس وقال:

- إننى أطوف البيت شكراً لرب البيت .

- ولم الشكر يا عباس؟؟

- دانت خبيبر لابن أخى وأسلمت قيادها له ، وعاد بالغنائم وتزوج صفية بنت حبي بن أخطب . لقد انتصر محمد . خدعكم بن علاط ليأخذ ماله . وهو الآن فى الطريق إلى يثرب . وابن علاط قد أسلم وحسن إسلامه .

وسرى النبأ فى كل الأرجاء ، واهتزت مكة من جديد ، واحتد الجدل والنقاش ، وتكومت هند على فراشها محتقة العينين ، ثائرة النفس ، ومال عليها أبو سفيان وقال مداعباً الرهان فدفعته فى صدرها دفعة قوية ، كاد يسقط على أثرها ، وذهب خالد بن الوليد إلى عكرمة ، وهمس فى أذنه الرهان» .

وأخذ عكرمة يصصر على أسنانه فى غيظ ويقول :

- لقد خدعنا هذا اليهودى الماكر ليأخذ أمواله ، لو كنت واثقاً من اللحاق به ، لطاردته ، ومزقته إرباً ، وجعلته طعاماً لوحوش البرية .

وتمتم خالد فى شروء :

- آه . إننى أكاد أقرأ سطور المستقبل . إننى أراه يسير برجاله المؤمنين ، وينشر دعوته ، فتدين له القبائل ، وتعلو رايته ، وأراه وهو قادم ذات يوم إلى مكة ، وكل واحد من أعدائه يتقدم نحوه يعلن قبول دعوته . والبعض يولى الأدبار فاراً بحياته إلى عالم المجهول إننى أراه وهو . . .

قاطعه عكرمة قائلاً :

- ماذا؟؟ هل جنت يا خالد؟؟ أو الوهم قد بدأ يسيطر على ذهنك أنت الآخر.
- إن خير لم تكن بالصورة التي توهمناها، لو أعطيتهموني، ألفين من الرجال لفتحت خير في ليلتين.
- قال خالد مقهقهاً: والرهان؟
- إننا كنا نمزح. مجرد أمنيات لم تتحقق.
- تنهد خالد وقال:
- سنظل نمزح ونتوهم حتى نفقد كل شيء.
- ثم استدار إلى عكرمة وقال في جد:
- لماذا لا نصرف جهودنا منذ الآن في البحث عن الحق، فإن كان في جانب محمد اتبعناه، وإن كان في جانب اليهود اتبعناهم وإن كان في جانبنا متنا دونه؟؟
- هتف عكرمة في شيء من الضيق.
- هذه قضية لا تشغلني الآن لقد عرفت الحق منذ زمن بعيد.
- وأين هو؟
- أشار عكرمة وقال:
- هنا. في قلبي.
- يا للكارثة. الحق ليس أمراً ذاتياً. إنه شيء يخص الجميع.
- إن مجاله الفكر وليس النزوات.
- إنك تعقد الأمور بطريقة غريبة.
- رماه خالد بنظرة ذات معنى وسكت.